زدني علماً

مادلين هورس ميادان

تاريخ قرطاج

مع مقدمة من المؤلف
خاصة بالطبعة العربية

ترجمة
ابراهيم بالش

منشورات عويدات
بيروت - باريس





تاريخ قرطاج



مَادلين هورس ميادان
المحافظة الاولى للمتاحف الوطنية في فرنسا
باحثة علمية في المركز الوطني للبحوث العلمية

تاريخ قرطاج

مع مقدمة من المؤلف
خاصة بالطبعة العربية

ترجمة
ابراهيم بالش

منشورات عويدات
بيروت . باريس

الطبعة الأولى ١٩٨١

مقدمة

قليلة هي ، في التاريخ ، الأسماء التي ـ كما قرطاج ، شهيرة ـ وقليلة كذلك ، تلك التي ـ مثلها ـ من الناحية العلمية ، مغمورة في الابهام .

فمجلس «كاتون» في روما ـ لا يمكن فهمه إلا من خلال الخوف والقلق اللذين كانا يجتاحان الحكم الامبراطوري الروماني ازاء النمو الاقتصادي والفكري في قرطاج .

هذه التي من صور ، والتي حملها إلى افريقيا فينيقيون هاربون ـ الفتن الدينية ـ عرفت أن تفرض لا مفاهيم اقتصادية جديدة فحسب ـ بل شرعة قالها الفلاسفة اليونان احدى اهمّ الشرعات في العصور القديمة .

اما الفينيقيون – وهم كانوا أبرز تجاره تلك العصور ، وجعلهم ... م الجغرافي على مفترق الطرق الاقتصادية والعسكرية في ... فكانوا على اتصال بالحضارات الشرقية الكبرى . ولما ... إ افريقيا ـ كان من العالم الغربي – وهو يومها لم ينهض بعد ... سباته – أن مهّد لهم امكانية أن يخلقوا مدينة تفتحت فيها

تجاربهم ومواهبهم الذكية ، دون أن يشككوا الامبراطوريات الشرقية والمصرية .

حول قرطاجة البونية ، وأمبراطوريتها ، صدرت دراسات عديدة في فرنسا والخارج . لكن تفرّق هذه الأعمال ، والتخصص الضيق فيها ، جعلاها محصورة بالقراء الضالعين . وأبرز تلك ، كتاب المؤرخ الراحل ستيفان غزل ، واجزاؤه الخمسة الأولى عن قرطاج ، وتختصر كل جمع للمعلومات عن قرطاج حتى ١٩٢٤ .

أما المتاحف التي تحوي آثاراً من قرطاج . فأبرزها اثنان : متحف باردو في تونس ، والمتحف الوطني في قرطاج . وثمة آثار أخرى مبعثرة ، مع نصوص بونية ، في «لوفر» باريس ، و«بريتش ميوزيوم» لندن ، ومتحف بيروت(؟) .

هذا الكتيّب بين يديك ، تختتمه سلسلة من المصادر والمراجع . وهي لا تحوي الا الكتب التي تستكمل كتاب غزل ، وأبرزها تلك التي تعنى بالأعمال التنقيبية عن الآثار ، بعد ١٩٢٤ ، وتلك التي تعنى بقرطاج الرومانية .

يبقى ، أن هدف هذا الكتيب ، ايجاز المسألة القرطاجية اليوم . لذلك ، سنلفت لا إلى المعطيات التاريخية فقط ، بل إلى خلاصة اعمال المنقّبين ، التي حملت إلينا نصوصاً ونماذج من أرض قرطاج نفسها ، خلال الحملات التنقيبية التي ادارتها بغتة الارسالية الفرنسية

في تونس ، قبل فترة ، وخلال ما تقوم به اليوم حملات الاونسكو الدولية ، وما تطلعه المؤسسة الوطنيه للفنون والآثار في تونس .

مادلين هورس

المحافظة الأولى للمتاحف الوطنية في فرنسا
باحثة علمية في المركز الوطني للبحوث العلمية

المدخل

قلّما عرف اسم في التاريخ الشهرة التي عرفها اسم قرطاج. ومع ذلك، قلّما أُهمل اسم مثله من الوجهة العلمية.

فالمدينة التي لعبت دوراً هاماً في التاريخ وفي الحضارة الغربية، خلال الألف الأول قبل الميلاد، تبعث في الذهن ذكر الحروب الفونية وهنيبعل، وتلفت انتباهنا الى رواية «سلمبو» «لغوستاف فلوبير» والى نصيحة «كاتون» التي أقلقت مجلس الشيوخ في روما: «يجب أن ندمّر قرطاج»

هناك عدد كبير من الدراسات تناولت تاريخ قرطاج الفونية وامبراطوريتها، ونُشِرت في فرنسا وخارجها، لكن تفرّق هذه الدراسات، والتخصّص المفرط فيها، يجعلانها صعبة المنال لدى القرّاء. وعلى الرغم من ذلك، لا بدّ لنا من ان نذكر «لستيفان جزل» مؤلفه الضخم الذي أُفردت اجزاؤه الخمسة الاولى لقرطاج. وتؤلف هذه الأجزاء مجموعة المعارف العلمية السابقة لعام ١٩٢٤.

وهناك متحفان كبيران يعرضان الآثار الصادرة عن قرطاج، هما متحف «باردو» في تونس. ومتحف قرطاج الوطني. ويمكن مشاهدة بعض الآثار والنصوص الفونية في متحف «اللوفر» في باريس. وفي المتحف البريطاني في لندن. وفي متاحف أخرى.

في نهاية هذا الكتاب، عرض للمراجع. لم تَرِدْ فيه سوى الدراسات التي تكمل مؤلّف «جزل»، ولا سيَّما المتعلّقة منها بالأبحاث الأثرية، التي أُنجزت منذ عام ١٩٢٤، أو تلك التي اقتصرت على قرطاج الرومانية.

ويكمن هدف هذه الدراسة في تلخيص قضية قرطاج في الوقت الحاضر. وسنراعي فيها ليس المعطيات التاريخية وحسب، بل أيضاً المعلومات التي أتى بها علماء الآثار، وخاصة تلك التي حصلنا عليها بواسطة الآثار والنصوص المستخرجة من باطن أرض قرطاج، عند حملات التنقيب الكثيرة. ولقد تمَّت هذه الحملات في الماضي بفضل سَعْي «إدارة الآثار» و«بعثة الآثار الفرنسية في تونس»، وهي تقوم اليوم بفضل أعمال «معهد تونس الوطني لعلم الآثار والفنون»، وعلى يد علماء الآثار الذين عكفوا على توضيح القضيّة التي يطرحها موقع قرطاج.

الفصل الاول

موقع قرطاج الجغرافي والتاريخي

اسم قرطاج الفينيقي «قرت حدشت» يعني المدينة الجديدة. أسَّسها سنة ٨١٤ قبل الميلاد فينيقيون أتوا من صور. وأُطلقت كلمة «فوني» على فينيقيّي الغرب وعلى إنتاجهم.

تقع قرطاج على بعد ١٦ كيلومتراً تقريباً من الشمال الشرقي لمدينة تونس، المدينة الافريقية الحالية، على شبه جزيرة واسعة، يحدّها من الجنوب خليج تونس، ومن الشرق البحر، ومن الشمال بحيرة «سوكرا» المالحة والممتدّة على الشاطئ. ويتّصل شبه الجزيرة هذا من الغرب بالقارة الافريقية، وينتهي عند البحر بنتوء صخري ارتفاعه ١٥٠ متراً، وينقسم الى قسمين شبه متساويين: في الشمال سواحل مستوية، تحدّ سهلاً واسعاً وخصباً، قليل السكان في القديم، ولكن تغطّيه بساتين غنّاء وأراض زراعية.

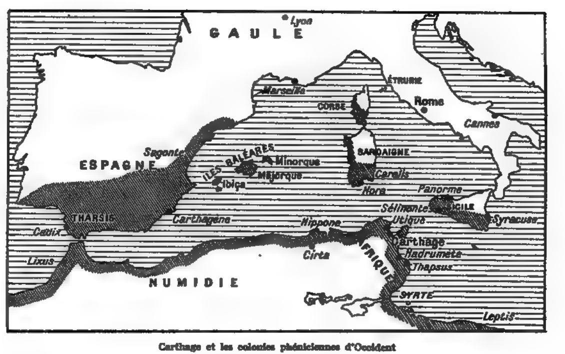
وفي الجنوب الشرقي لهذا المرتفع الصخري الذي تقوم عليه في الوقت الحاضر قريه سيدي بوسعيد، يمتدّ سهل تتخلّله الأودية

الصغيرة . وثلاث تلال تغطّيها الخرائب : هناك كان يقع قلب مدينة قرطاج .

وشبه الجزيرة ذو تكوين جيولوجي قديم جدّاً . فهو يؤلّف جزءاً من سلسلة جبال أطلس التلّ . ويعتبر أحد امتداداتها القصيّة . وإذا ما اعترى تكوين شبه الجزيرة تغيّر طفيف منذ الأزمنة البعيدة ، فعلى العكس من ذلك ، تبدّل شكل السواحل تبدّلاً واضحاً ، تحت تأثير التيّارات البحرية ورسوبات نهر مجرّدة (نهر باجرادا القديم) فكانت الأمواج تضرب القسم الشمالي من شبه الجزيرة . وبحيرة « سوكرا » غير متميّزة عن البحر الذي يفصلها عنه ، في أيامنا هذه ، شريط واسع من الرمل .

١ – المناخ

مناخ قرطاج معتدل حار ، يشبه الى حدّ بعيد مناخ تونس الحالية . ولربما كان أشدَّ رطوبة ، لأن منطقة تونس لا تتلقّى في الوقت الحاضر إلاّ ٤٥٠ مليمتراً مكعباً من مياه الأمطار . ويوفّر هذا المناخ لقرطاج مزروعات متوسطية ، كالحبوب والزيتون والخضار وغيرها . وليس تفاوت درجات الحرارة فيها كبيراً جداً بل يلطّفه جوارها للبحر . ومعدّل سقوط الأمطار يبلغ ثمانين يوماً في السنة ، ممّا يجعل مناخها صحّياً وقليل الرطوبة . وفي أغلب الاحيان تتعرّض



Carthage et les colonies phéniciennes d'Occident

قرطاج والمستعمرات الفينيقية في الغرب

منطقة قرطاج لريح شمالية غربية ، كما ان نسيم البحر يخفّف من وطأة السموم عند هبوبها.

٢ – الثروة النباتية

تغطي شبه الجزيرة نباتات هزيلة كالستيب والعلّيق المتوسطي والوزّال واكليل الجبل. غير ان الكتّاب الأقدمين يؤكّدون أن غابات واسعة كانت تمتدّ قرب المدينة ، وتنتشر فيها أشجار الصنوبر والعرعر والأرز والسنديان وغيرها.

وعرف القرطاجيون بالزراعة. فالبساتين والحدائق التي أحاطت بقرطاج في الحقبة الفونية ، أثارت إعجاب الرومان عندما وطئوا أرض أفريقيا. وكانت زراعة الحبوب والكرمة والزيتون وسائر الأشجار تغطّي شمال شبه الجزيرة. والجزء الأكبر من الساحل التونسي. أما أرض هذا البلد التي تبدو قاحلة فبإمكانها ان تنبت بكثرة مذهلة. ويكاد مظهر الريف القرطاجي يماثل الى حدّ بعيد هيئة المناطق المرويّة في شمال تونس الحالية ، لو لم يكن خالياً من الصبّار والأوكلبتوس وسائر النباتات المدارية ، التي نقلت زراعتها حديثاً ، فأصبحت متكيّفة مع المناخ المحلي الى أقصى حدّ.

٣ – الثروة الحيوانية

تنوعت الثروة الحيوانية. وكثرت الحيوانات المفترسة كالأسد والضبع وابن آوى. فكانت مصدر غنى لقرطاج. حيث يقنص

علنيا لتستخدم في ألعاب السيرك.

ونجد أيضاً، في الحقبة الفونية. الزرافة وفرس البحر والفيل والنعامة. وتؤكد لنا النصوص أن جوار المدينة كان من المناطق الزاخرة بالطرائد. ومايثبت أقوال المؤلفين القدماء تلك الألواح المنقوشة التي تمثّل الأرنب والحجل والسماني ودجاجة الماء. ولم يعرف القرطاجيون الجمل. بينما راحوا يربّون بأعداد كبيرة الحصان النوميدي الأصل والحمار والبغل والثور والعنزة وخاصة الخروف.

وتكثر الأسماك على شواطئ منطقة قرطاج. وخصوصاً في خليج تونس. ولا يخفى علينا أن صيد السمك أسهم إسهاماً كبيراً في تموين المدينة حيث يتوفّر الطون والسردين والحنكليس وانتشرت على السواحل أصداف الموركس التي يستخرج منها صِبْغ الأرجوان، مثلما انتشرت في فينيقيا.

ولا يحتوي باطن الأرض في قرطاج وجوارها على مكامن معدنية. لكن حجارة البناء كان يؤتى بها من مقالع الرأس الطيّب، الذي يقع في الطرف المقابل لخليج تونس. كما استخرج الرخام من مقالع «شمتو» الواقعة غربيّ تونس. وحتّى الفخار لم يندر في قرطاج. إذ اكتشفت مصانع خزّافين استعملوا التراب المحلّي.

٤ – الإثنوغرافيا

ما يؤكد وجود السكان في المناطق الساحلية من تونس. في حقبة

ما قبل التاريخ ، بعض الأدوات والتحف التي جُمعت خاصة في الجنوب ، كفؤوس الصوّان وبيوض النعام المزيّنة بالرسوم وغيرها.

وفي الفترة التاريخية ، أقام البربر في الأراضي التي وقعت في وقت لاحق تحت سيطرة الفونيين ، وعاشوا بداةً في الجنوب ، وتعاطوا الزراعة في الشمال ، واعتمدوا الزراعات الأساسية ، قبل تدفّق الفينيقيين على قرطاج ، كما أنهم عُنوا بتربية الماشية ، وعرفوا الكتابة ومختلف الصناعات . وظهر الفينيقيون في تونس ، على الأرجح ، منذ بدء الألف الثاني قبل الميلاد ، ولم يؤسّسوا مدناً ثابتة إلا في القرن الثاني عشر ، ومن هذه المدن ، «اوتيك» الواقعة على الساحل الافريقي ، على بعد عشرات الكيلومترات من شمال قرطاج ، في خليج تراكمت فيه حالياً رواسب نهر المجرّدة . أما مدينة حضرموت ، وهي سوس الحالية ، فقد تأسّست بعد ذلك بزمن قصير. وتمّ بناء مدينتي قادس ولكسوس الفينيقيتين ، في النصف الثاني من الألف الثاني قبل المسيح ، من جهتي مضيق جبل طارق.

وبما أن قرطاج كانت قريبة من بعض المدن الثابتة «كأوتيك» ، ثم «حضرموت» ، فلقد أقام الفينيقيون فيها مركزاً تجارياً ، في وقت مبكّر جداً ، لأن طريقتهم في الملاحة فرضت عليهم إقامة محطّات عديدة . ويؤكّد لنا ذلك بناء أثري صغير ، ديني أو جنائزي ، اكتشف حديثاً ، وهو مشيّد تحت المذبح القرطاجي . ويدلّنا على

تاريخ نشوء المدينة بقايا خزفية من صنع قبرصي وفينيقي، يرجع عهدها الى القرن الثاني عشر قبل الميلاد تقريباً. فالفينيقيون الذين أسّسوا قرطاج هم ساميّون من الفرع الكنعاني. وتثبت دراسة لغة الفينيقيين وديانتهم صحة هذا التصنيف العرقي أكثر ممّا تثبتها الانتروبولوجيا. وعُثر في قبور قرطاج على بعض الجماجم لنماذج بشرية متنوّعة. وهي لا تتّصف بمميّزات العرق السامي الأصيل إلا بصورة استثنائية، كما أنها ترجع عادة الى أجناس خليطة.

وأسّس قرطاج صوريّون بمساعدة قبرصيين. لكن النصوص القديمة والكتابات الفونية تتّفق إن في الحكايات التي تسوقها أو في أسماء العلم المختلفة والنعوت الجغرافية على إظهار تنوّع السكان القرطاجيين. وعن هذا التنوّع تولّد أنموذج عرقي اختلطت فيه الاجناس البشرية، لأن الفونيّين لم يتورّعوا عن الاقتران بالنساء الغريبات. وهكذا جمعتهم حضارتهم السامية ولغتهم السامية ودينهم السامي اكثر مما جمعتهم خصائص عرقية مشتركة.

٥ – الموقع التاريخي

أُسّس قرطاج في سنة ٨١٤ قبل الميلاد جماعة من الفينيقيين، اقبلوا من صور بقيادة «أليسّا» أو «ديدون»، أخت «بجماليون» ملك صور. وضمّت هذه الجماعة المواطنين الأغنياء الذين تركوا صور تحت وطأة أحداث سياسية أو اقتصادية نجهلها، ورافقوا الملكة نحو مدينة

واضحة المعالم يقطنها صوريّون منذ قرون.

وفي ذلك الوقت، كانت مصر في إنحطاط كلّي، يستعبدها ملوك حبشيّون وليبيّون، قبل أن يجتاحها الأشوريون. وقبل ان تسيطر عليها اليونان أثناء النهضة الصعيدية.

وأما الامبراطورية الأشورية، فقد عظم شأنها، وبسطت سلطتها على العالم الشرقي حتى سنة ٦١٢ تاريخ سقوطها.

وقبل ذلك بثلاثة قرون انتهت حرب طروادة، وأخذت اليونان المنتصرة تنظم نفسها، واستعمر ابناؤها صقلية وليبيا، وتنافسوا مع الفينيقيين في الميدان التجاري والاستعماري.

ولن يتم تأسيس روما إلا بعد ذلك بخمس وستين سنة.

الفصل الثاني

المصادر

حلّ «شمبوليون» رموز الكتابة الهيروغليفية سنة ١٨٢٤، واكتشف «بوتّا» عام ١٨٤٣، أثناء أعمال التنقيب التي قام بها، بلاط الملك الأشوري سرجون، في خرساباد، ممّا أتاح قراءة النصوص المصرية، واكتشاف بلاط رائع، وتوضيح جزء من تاريخ الانسانية. وتبارى البحّاثة وعلماء الآثار والهواة في نشاطهم. تشجّعهم هذه الاكتشافات. ومكّنت أعمال التنقيب في الشرق وفي شمال أفريقيا من تنمية وسائلنا في البحث والنقد، فازدادت معرفتنا بالشعوب الفينيقية والقرطاجية، التي لم نعرفها من قبل، إلا من خلال روايات المؤلفين اليونان واللاتين.

فالمصادر التي نستطيع من بعد أن ننهل منها المعلومات المتعلّقة بتاريخ وحضارة قرطاج، هي نصوص المؤلفين الكلاسيكيين، ونقوش فينيقية وبونية، بالإضافة الى الآثار التي نبشها التنقيب.

١ – النصوص

١ – المؤلفون الكلاسيكيون. – إن أقدم النصوص هي قصائد

هوميروس. فعندما أُلّف الإلياذة والأوديسة. كانت تجارة صور منتشرة في كل البحار. وأظهر «بيرار» في سلسلة من المؤلفات، مقدار ما للفينيقيين من فضل على اليونان الناشئة.

ويعرض لنا تاريخ «هيرودتس»، وتاريخ «ديودورس» الصقليّ، و«بوليبيوس»، و«تيت ليف». و«أبيانوس». و«تروغ بومبي»، و«يوستينوس»، و«كورنيليوس نيبوس». و«سيليوس إيطالكس»، وغيرهم، معطيات هامّة، ولكن يشوبها التحامل في أغلب الأحيان. وبالإضافة الى ذلك، لم تُستَقَ هذه المعارف من منابعها، كما أن نقد المصادر ما زال أمراً عسيراً.

وعثرنا بفضل «أوزاب»، الذي يستشهد «بفيلون الجبيلي»، على بعض معالم الديانة الفينيقية. وكان «فيلون» قد وفّق بين هذه المعالم وبين الحقائق التي أتى بها «سنكونياتون». إلاّ أن النصوص التاريخية المحرّفة والمؤوّلة لا توضح الواقع رغم كثرتها، كما توضحه الوثائق القديمة المستخرجة من باطن الأرض.

٢ – **النصوص الشرقية**. – ان الوثائق المكتوبة التي تتناول أقدم مرحلة من التاريخ الفينيقي ما زالت نادرة.

وبعض المخطوطات التي كُشف عنها في تل العمارنة، في مصر، هي مقتطفات من السجلات الدبلوماسية، تعود الى القرن الرابع عشر قبل المسيح. وتبيّن لنا التقسيم السياسي في العالم الشرقي. إنها

رسائل رسمية تبادلها ملكا مصر الفرعون «أمينوفيس الثالث» والفرعون «أمينوفيس الرابع» مع أمراء سوريين وفينيقيين وآسيويين. وترجع الى هذه المرحلة مخطوطات رأس شمرا. وهي مجموعة من المخطوطات المكتوبة بالحرف المسماري، اكتشفت في مكتبة معبد يعود الى الألف الثاني قبل الميلاد، إبان أعمال التنقيب التي قامت بها بعثة فرنسية بين سنتي ١٩٢٩ و١٩٣٩. وكان «شيفر» يدير هذه البعثة في منطقة رأس شمرا – أوغاريت، المدينة القديمة الواقعة في أقصى شمال فينيقيا. وتُطلعنا هذه المخطوطات على أدب الفينيقيين الديني والملحمي، وتظهر لنا قرابتهم للعبرانيين الذين عاشوا قبل موسى - وأصلهم المشترك معهم. وهي تؤكّد في الوقت نفسه صدق أساطير الآباء القدماء التي يسوقها الكتاب المقدس، كما تثبت قدم هذه الأساطير. وهي تساعدنا خاصة في معرفة الديانة الكنعانية، في الألف الثاني قبل الميلاد، هذه الحقبة التي سيؤسّس أثناءها بعض فرق البحّارة الشجعان المدن الفينيقية الأولى في أفريقيا.

٣ – **النصوص القونية** – تطلق هذه التسمية على النصوص التي اكتشفت في قرطاج. وكُتبت باللغة الفينيقية. وهي أبجدية سامية. وتبقى هذه النصوص رغم كثرتها قليلة النفع في أغلبها. ولقد دُرست ونشرت تباعاً بحسب اكتشافها في «مجموعة المخطوطات السامية»، بفضل جهود «أكاديمية المخطوطات والآداب».

وأكثر من خمسة آلاف من هذه النصوص هي مخطوطات إهدائية ، لا تتعدّى بضعة أسطر ، نُقشت على الصفحة الرئيسية من النذور. والواقع أن هذه النذور قد عُثر عليها في قرطاج ، وهي مهداة لأهم الآلهة في المدينة. وأما العبارة الأنموذجية في هذه المخطوطات فهي التالية : «تقدمة حنّون بن ماغون بن بود ملكارت، للربّة تانيت وللربّ بعل حمّون ، لأنهما سمعا دعاءه وباركاه». ولا شك ان اسم صاحب التقدمة يتغيّر باستمرار من نذر الى آخر ، وكذلك كل ما يشير أحياناً الى المصدر الجغرافي والمهنة. وإذا ما نظرنا الى المنطقة التي تأتي منها مجموعة هذه النصوص ، والى مميّزات الكتابة فيها ، أمكننا إرجاعها الى القرون الأربعة قبل الميلاد.

وإبّان حملات التنقيب التي قامت بها سنة ١٩٤٦ «إدارة الآثار القديمة» ، تحت إشراف «ستتاس» ، عُثر في الطبقات السفلى من مذبح «سلمبو» على نصبين جنائزيين ، نُقشت عليهما كتابات بحرف قديم جداً. ويعود تاريخها على ما يبدو الى القرن السادس قبل المسيح ، ولا يزالان يعتبران أكثر النصوص قدماً في العالم الفوني ، ويحملان عبارة إهدائية تختلف عن العبارات السابقة ، وتشير الى طريقة في تقديم الذبيحة يُعتقد أنها طريقة التضحية بالأولاد في قرطاج. وهناك مخطوطة نشرها «ديبون – سومّر» عام ١٩٦٨ . تتكلم عن انشاء مبنى معدّ للخدمة العامة يعود الى القرن الثالث.

ومن النصوص التي تلفت النظر «تعرِفات الذبائح». ويبلغ عددها في الوقت الحاضر خمسة، وهي مخطوطات شبه كاملة، موضوعة في المعابد. سنعمد الى درسها في الفصل المعقود للديانة الفونية وطقوسها.

- وليست المسكوكات من الناحية النقوشية بذات أهمية، لأنها قليلة التنوّع في قرطاج.

ولقد تعرّفنا بعضَ النصوص الفونية بواسطة الترجمات اليونانية الكثيرة التجزيء لسوء الحظ. ولا بدّ من أن نذكر منها رواية تلك الرحلة على الشواطئ الأفريقية، التي عُرفت «برحلة حنّون البحرية». وحُفرت على طاولة برونزية في معبد بعل بقرطاج، ووصلت إلينا ترجمتها اليونانية. وبالرغم من غموض بعض الجمل فيها، تعرّفنا هذه الوثيقة توسّع قرطاج الاستعماري وجرأة ملّاحيها الذين كانوا أوّل من اكتشفوا ساحل افريقيا الغربي وجزر الاطلنطي.

وقديماً لقي مؤلَّف ماغون القرطاجي في الزراعة شهرة واسعة، ووصلت إلينا منه بعض الصفحات التي ذكرها مؤلفون قدماء. أما مخطوطات مكتبات قرطاج فقد تشتّتت وأفسدت عندما نهب «سيبيون» المدينة، وأسلم بعضها الى الملوك النوميديين فحفظوه، ومع ذلك لم يخلص إلينا أية مخطوطة منها.

٢ – أعمال التنقيب

في بدء القرن التاسع عشر، عندما أخذ يزداد اهتمام المؤرخين وعلماء الآثار بتاريخ وحضارة الشعوب القديمة، أثارت قرطاج فضول العلماء وجشع التجار. واشتهر اسمها كما اشتهرت المنطقة التي قامت فيها، بفضل النصوص القديمة. وبفضل الصراع البطولي الذي نشب بينها وبين روما، والذي عُرف بالحروب الفونية.

وتأسَّست في باريس ١٨٣١ شركة كانت تهدف الى اكتشاف قرطاج، وهي لم تنشر النتائج التي تمَّ الوصول اليها. ولم تطلع عليها المساهمين. هذا إذا توصَّلت الى نتائج. وبعد ذلك بقليل، وضع «فالب» القنصل العام للدانمرك في تونس. تقريراً قيّماً عن المنطقة وعن الترميم فيها. ولكنه عدل عن القيام بتنقيب منظَّم. وفي الوقت نفسه. بحث «ناتان دايفس» في شبه الجزيرة. وفي قصده العثور على بعض الآثار كي يقدّمها للمتحف البريطاني.

ويعتبر «بولي»، عضو المعهد الفرنسي. أول مَنْ قام بالتنقيب بطريقة علمية. وهو لم يهدف من ذلك الى اكتشاف بعض الآثار المنقولة بل الى ايضاح طوبوغرافيا وتاريخ المدينة الفونية. وأدار في قرطاج حملتي تنقيب. إحداهما في ربيع سنة ١٨٥٩. والأخرى في الخريف من السنة نفسها.

وتقصَّى «بولي» أرض شبه الجزيرة مرات كثيرة. فحصل على

معلومات دقيقة . لكنه انقاد لخياله . وهو المتضلع بالأدب القديم الخاص بالمدينة التي ينقّب فيها . فراح يفسّر النتائج الهزيلة التي توصّل إليها . وجعل منها منطلقاً لأعمال ترميم واسعة . وتحمل دراسته للمنطقة قيمة كبيرة لعالم الآثار . رغم أنها لم تبلغ الدقّة المشودة . وقد خصّص حملة التنقيب في الربيع لاكتشاف تلّة «بيرسا» التي اعتبرت دائماً وبحق أكروبول قرطاج . وجدّد على طول يتجاوز المئة متر سوراً ذا جدار ضخم . وتعرّف آثاراً رومانية كثيرة .

وانصرف في الخريف الى مرفأي قرطاج . وهو يُعدّ بحقّ أول من حاول أن يدرس عن قرب التجهيزات المرفئية التي ما زالت قائمة . وأن يعاين مقدار ما تتفق مع ما وصفها به «أبيان» .

وأنجز حملته باكتشاف مدفن «غامرت» ، في الطرف الشمالي الشرقي من شبه الجزيرة . ويكاد هذا المدفن لا يحتوي إلا على قبور يهودية من العهد الروماني .

١ – الآثار الفونية . – في سنة ١٨٧٤ ، أوكلت «أكاديمية المخطوطات والآداب» الى «دي سانت ماري» ، الملحق الدبلوماسي بالقنصلية العامة لفرنسا في تونس ، مهمّة تتعلّق بالمخطوطات . يقصد منها البحث عن آثار تحمل كتابة بالخط الفوني . واغناء «مجموعة المخطوطات السامية» (المجموعة الرسمية للنصوص السامية) التي بوشر نشرُها . وكُلّلت هذه المهمّة بالنجاح .

وامتدّت أعمال التنقيب من آب حتى كانون الأول من سنة ١٨٧٤ ، وشملت المنطقة الواقعة على منتصف الطريق بين «بيرسا» والبحر، بالقرب من المكان الذي تمرّ فيه الخطوط الحديدية من تونس الى «المرسى». وأثناء هذه الأعمال، عُثر على ما يقارب ألفين ومئتي لوح نقوشي من الحقبة الفونية، تحمل غالبيتها رموزاً كثيرة، وكتابة إهدائية للإلهة تانيت وللإله بعل حمّون. وأرسلت هذه الآثار الى فرنسا، لكنها غرقت مع المركب الذي كان ينقلها عند مدخل مرفأ طولون، وأخرج من الماء القسم الأكبر منها، وأعيد نقشها جميعاً، بفضل النسخ التي نقلها المنقّب قبل انطلاق المركب.

ومن نتائج هذا الاكتشاف، تأليف كتاب «مهمّة في قرطاج» وعدّة كراريس من «مجموعة المخطوطات السامية».

وترجع اكتشافات الأب «دولاتر» الأولى الى سنة ١٨٧٨، كما أنها استمرّت بعد ذلك طيلة إقامة هذا البحّاثة الذي لا يتعب في قرطاج، أي ما يقارب نصف قرن. فالمجموعات الفونية الرائعة في متحف قرطاج هي وليدة أبحاثه الطويلة. فلقد نقّب في مدافن قرطاج على التوالي: في قبور «بيرسا» في سنة ١٨٨٠، وفي «دويماس» من سنة ١٨٩٢ الى ١٨٩٦، وفي برج جديد من سنة ١٨٩٨ الى ١٩٠٦، وفي غيرها.

وفي سنة ١٨٩٤، أقبل «ريناخ» و«بابلون» الى قرطاج، يحثّها

على ذلك «تيسّو» ، العالم في جغرافية أفريقيا القديمة . فحوّلا المنطقة التي اشتغل فيها «سانت ماري» سابقاً الى ميدان تنقيب ، واستخرجا منها ٥٨٠ أثراً ، ٣٣٠ منها نقشت عليها كتابات .

وفي سنة ١٨٩٩ شرع «بول غوكلر» ، مدير «الآثار التونسية» ، في التنقيب ، واستغرق عمله أربع سنوات ، تمكّن ان يكشف خلالها عن المدافن الفونية ، وأن يجمع مادة كتابه «المدافن الفونية» الذي نشره «أنزيباني» بعد موت «غوكلر» .

وتمتد مَدافن قرطاج بشكل قوس من تلّة «بيرسا» حتى الشاطئ ، عند سفح تلّة «سانت مونيك» .

وتقع المدافن الأكثر قدماً داخل هذا القوس الوهمي ، من ناحية المدينة ، وهي «بيرسا» و«سان لويس» و«جينون» و«درماش» . ويرجع عهدها الى ما بين القرنين السابع والخامس قبل الميلاد .

وأما المدافن التي تليها من الناحية الزمنية فهي تمتدّ من البحر حتى تلة «الأوديون» ، وهي «أرض الخرائب» و«دار المرالي» و«أوديون» . ولا تختلف اسماؤها عن اسم الأراضي التي تقع فيها (أنظر خارطة قرطاج صفحة ٥٢–٥٣) . كما انها ظلّت تستعمل حتى سقوط قرطاج . وإذا سلّمنا بأن سنة ٨١٤ هي التاريخ الصحيح الذي تأسّست فيه المدينة ، يبقى علينا ان نكشف عن قبور القرطاجيين الأول .

وبين سنتي ١٩٠٦ و ١٩٠٩ . عاد «مرلين» و«درابيه» الى التنقيب في المدافن . وانصرفا عن قبور «درماش» الأكثر قدما . لأن غوكلر قد اكتشفها سابقاً . فقصدا الى قمة المضبة . حيث المكان الذي يقال له «أرض الخرائب» . ونبشا عن مجموعة من القبور . يرجع عهدها إلى القرنين الخامس والسادس قبل الميلاد . وتتوسط من الناحية الزمنية مدافن «درماش» ومدافن «سانت مونيك» التي يعود تاريخها الى القرنين الثالث والثاني قبل الميلاد .

وفي سنتي ١٩٠٨ و ١٩١١ . عمد «مرلين» الذي خلف «غوكلر» في «إدارة الآثار التونسية» الى التنقيب في جزيرة صغيرة . تقع وسط المرفأ الدائري الشكل . وعثر في غضون ذلك على صفّ من قطع الحجارة الفونية الكبيرة والمربّعة الزوايا . ويبدو وضع هذه القطع غير متفق مع الشكل الدائري الحالي للجزيرة . التي يحيط بها جدار مبني بحجارة فونية . أعيد استعمالها على ما يظهر في الحقبة الرومانية .

وبيّنت أعمال التنقيب هذه أن الجزيرة كانت مأهولة في الحقبة الفونية . ولكن ما من شيء يحملنا على الاعتقاد بأنها اتخذت في ذلك الوقت شكلاً دائرياً . أو خفقت فوقها راية أميرال .

واكتشف الدكتور «كرتون» . في سنة ١٩١٦ . معبداً فونياً في قرطاج نفسها . في موضع محطّة «سلمبو» الحالية .

وعثر في هذا المعبد المتواضع والمتهدّم بكامله تقريباً ، على خمسة تماثيل . وعلى قطع من المرمر المستعمل للزخرفة .

ويرجع الى عالم الآثار هذا الفضل في اكتشاف نبع محبوس المياه في برج جديد . ويعود عهد هذا النبع الى المرحلة الفونية رغم ما لقي من تحسين عبر الحقب المختلفة . كما عُرف موضعه «بنبع الألف قارورة» . لكثرة ما بقي فيه من آجرّ قديمة (حوالي الألفين) .

وفي سنة ١٩٢٢ . اكتشف «إيكار» و«جيلّي» عدداً كبيراً من الألواح النقوشية الفونية . وهي نذور شبيهة بتلك التي وُجدت في أمكنة مختلفة من قرطاج . ولهذه الألواح حسنات جمّة . بسبب العثور عليها في موضعها الأصلي . أي في المكان نفسه الذي أقامها فيه قبل الميلاد ببضعة قرون عبّاد بعل وتانيت .

ويقع هذا المكان المقدّس الذي عُرف بمذبح قرطاج على بعد خمسين متراً عربيّ المرفأ المستطيل الشكل (أنظر خارطة قرطاج في صفحة ٥٢ — ٥٣) .

وسرعان ما لفت «بوانسو» . مدير «الآثار التونسية» آنذاك . الى أهمية هذا الاكتشاف .

وفي ذلك الوقت . بوشر التنقيب بطريقة منظمة . تحت إدارة «لانتيه» . مفتّش الآثار . وبمساعدته .

وازداد عدد الآثار التي كُشف عنها ، وعظمت أهميّتها . ممّا حدا البعثة الاميركية التي يديرها «كلسي» . البروفسور في «جامعة متشغان» . على ان تسرع من الولايات المتحدة . وتستأنف البحث ، بعدما تبيّن أن حدود المذبح تتعدّى بكثير حدود الأرض التي نقّب فيها «إيكار» و«جيلّي» . وكان الدكتور «كرتون» قد تملّك قطعة أرض محاورة للمذبح . لكن الموت لم يُتح له أن يكشف عمّا فيها .

وفي سنة ١٩٣٦ . تعهّد الأب «لابير» بتنقيب قطعة الأرض التي أوكلتها إليه السيدة «كرتون» . وأثبت ان انتشار الآثار فيها يضاهي انتشارها في الأمكنة التي نقّبت سابقاً . كما أثبت ان هذا المذبح يمتدّ الى مسافات بعيدة . وينتمي الأب «لابير» الى رهبانية الآباء البيض . وهو مدير «متحف لافيجري» . وخلف للأب «دولاتر» الذي لم ينقطع نشاطه في مضمار الآثار في قرطاج . طوال عشرين عاماً .

وتوقّف التنقيب قبل الحرب بقليل . لكنه استؤنف في سنة ١٩٤٥ في الأراضي الواقعة الى الغرب من الأراضي السابقة . يحثّ عليه «بيكار» مدير الآثار . ويديره «ستاس» الذي اهتمّ باكتناف المذبح اكتنافاً منهجياً . فراح ينظّف الأرض في طبقات متتالية . بعد أن لجأ الى طريقة ووسائل تستعمل لأول مرّة في قرطاج .

ويساعد نشر أخبار هذا التنقيب في لمذبح على استخلاص قدر

كبير من الحقائق الخاصة بالديانة والحضارة الفونيتين.

وباشر الأب «بوادوبار» أبحاثه. فعمد الى دراسة التجهيزات المرفئية. والى تعيين مواضعها. وكان الأب «بوادوبار» قد تخصَّص منذ بضع سنوات في دراسة المرافئ الفينيقية. وخاصة مرفأي صور وصيدون. واستعان في قرطاج بأحدث الطرق في البحث كالتصوير من الجوّ. والسبر تحت مياه البحر.

واستؤنف التنقيب باندفاع متجدّد بعد أن أسَّست حكومة تونس «المعهد الوطني لعلم الآثار والفنون» الذي أصبحت «بعثاته» تعمل في قرطاج باستمرار. الى جانب فرق «مركز الابحاث الأثرية والتاريخية في تونس». وفرق «معهد الدراسات حول الشرق الأدنى» في جامعة روما. ومنذ سنة ١٩٥٦. ومع قيام اعمال محمد حسن فنطر. ومُنجي إنّيفر. وعلماء آثار تونسيين كثيرين. أخذ علم الآثار الفونية يتقدّم. وأخذت تزداد قيمة مجموعات متحف «باردو» الشهيرة.

٢ — الآثار الرومانية. — رافق الكشف عن الآثار الفونية التنقيب عن الآثار الرومانية في قرطاج.

وحُفظت الآثار الرومانية الرئيسية في قرطاج من الضياع بفضل قياساتها. ورَعَت مصالح الآثار في تونس ترميمها ورفع أنقاضها. ولم تولِ اهتماماً كبيراً للكشف عنها.

وشملت حركة التنقيب والترميم والدرس . المسرح وقاعة الغناء والسيرك والمدرّج وبعض المزارع وكثيراً من أحياء المدينة الرومانية . وأشهر من قام بهذه الأعمال «أودولنت» . و«سومانيه» الذي اشتغل في مسح الأرض . و«مرلين» . و«غوكلر» .

وفي سنة ١٩٤٥ . تابعت «إدارة الآثار» رفع أنقاض «حمّامات أنطونين» . وتمتدّ خرائب هذا الأثر العظيم على بضع مئات من الأمتار ، على طول الشاطئ . من قرطاج الى برج جديد . ولقد أصبحت مقلعاً دائماً للبنّائين المتوسطيّين لأكثر من ألف سنة . غير أننا ما زلنا نرى فيها بقايا قوية .

وأُزيحت من الأنقاض الغرف المدفونة تحت ركام القباب المتهدّمة من الطبقات العليا . ونجح «فوي» في دعمها وفي رفعها في أمكنتها .

وتهيمن العظمة على هذه الغرف ، فهي ما زالت الدليل الذي يعرّفنا غنى قرطاج الثانية وازدهارها .

وفي سنة ١٩٤٨ . أخذ الأب «فرّون» ينقّب في أنحاء كثيرة من قرطاج ، فاكتشف في سيدي بوسعيد مدفناً ، يرجع عهده الى السنوات الأخيرة من قرطاج الفونية . فأثبت بذلك توسّع المدينة المستمرّ نحو الشرق . وعمد من ناحية أخرى الى النبش عن البناء المستدير المقبّب القائم تحت الأرض قرب «بازيليك» «داموس الكريتا» . ليوضح أوجه استعماله ، وليحدّد تاريخه . والى جانب

ذلك كان نشاط الأب « فرّون » في « متحف لافيجري » لا ينقطع .

وفي سنة ١٩٤٩ . اكتشف الجنرال « ديفال » بقايا تحصينات قرطاج الفونية .

وما زال في وسع الكثيرين ان يسهموا . عند البحث في الأرض التونسية . في تقدّم علم الآثار الفونية . وفي إغناء مجموعات متحف « باردو » الشهيرة . ومن أجل ذلك . ما برح « قسم علم الآثار الفونية في مركز الأبحاث الأثرية والتاريخية في تونس » يعمل باستمرار .

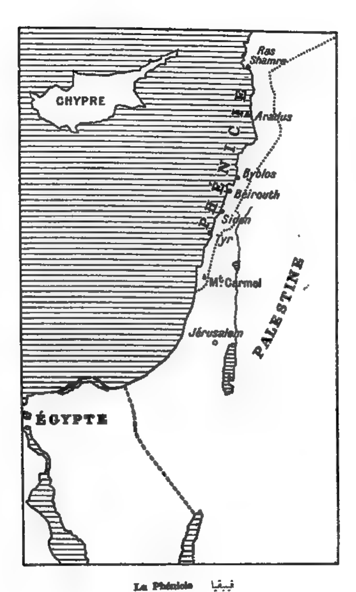
الفصل الثالث

أصل المدينة وتأسيسها

أسّس قرطاج فينيقيون أتوا من صور. فظهر تأثيرهم العميق في ديانة المدينة ولغتها وحضارتها. ولذا تبقى بعض الأفكار الأساسية عن فينيقية وسكانها، مقدّمة ضرورية لفهم الحضارة الفونية.

١ – **فينيقية.** – في القديم. كان يُطلق هذا الاسم على المنطقة الجغرافية التي تمتد تقريباً على ساحل سورية الحالية (أنظر الخارطة في الصفحة ٣٤). وكانت فينيقية تعدّ عشرين مدينة وضياعاً كثيرة. أما مدنها الرئيسية، فهي من الجنوب الى الشمال صور وصيدون وبريت (حالياً بيروت) وجبيل (بيبلوس) وطرابلس وأرواد. وفي أقصى الشمال رأس شمرا وأوغاريت المواجهة لجزيرة قبرص.

وكانت هذه المدن الفينيقية تعتبر مستقلة بعضها عن بعض. إلا أنها بقيت في الواقع تجمعها الحضارة ذاتها، فأصلها واحد ولغتها واحدة وديانتها واحدة. وتجدر الاشارة الى أن مصيرها المشترك كان يرتبط بالتيارات التاريخية الكبرى. وقد تمكّنت هذه المدن باعتدالها ان تفلت من هذه التيارات أحياناً. وأن تقاومها أحياناً نادرة.



La Phénicie فينيقيا

وتتكوّن فينيقية من مجموعة من المدن ، يحدّ أفقها من الشرق جبال لبنان ، كما تحول دون توسّعها . وفي القديم . أصبح سكانها أمهر الملاّحين . بفضل الموارد البحرية التي تدفّقت إليها عبر مرافئها .

٢ – الفينيقيون . – يبدو أن موطن الفينيقيين الأول كان في جوار البحر الأحمر . هذا ما أورده هيرودتس . وأكّدته من زمن قريب مخطوطات رأس شمرا . فهذه المخطوطات ليست سوى أساطير وقصائد دينية وملحمية . كتبت في القرن الرابع عشر قبل المسيح . وتجري حوادثها في المنطقة الشمالية الغربية من شبه الجزيرة العربية . ومنذ مطلع الألف الثالث قبل الميلاد . فرضت تجارة القوافل على الفينيقيين ان يحتلّوا لبنان ومرفأي صور وصيدون الحاتمين عند سفوحه . وأنشأوا أسطولاً بحرياً . ربما على نسق أسطول الايجيّين . وتمكّنوا بذلك ان يوسّعوا علاقاتهم التجارية . فلقد ظهر التأثير المصري في جبيل حوالى الألف الثالث قبل المسيح . ولم ينقطع أهلها عن التبادل التجاري مع المصريين .

ولا يستبعد هيرودتس ان يقع تأسيس صور حوالى عام ٢٧٥٠ قبل الميلاد . وساد تأثير المصريين في فينيقية في نهاية الألف الثالث ومطلع الألف الثاني . لكن معظم المدن الفينيقية ظلّت تقاوم باستمرار للحفاظ على استقلالها .

وحوالى سنة ١٢٠٠ قبل الميلاد . اجتاحت غزوة من الشعوب

الآتية من شمال سورية فينيقية وفلسطين . ولم تتوقّف إلا عند حدود مصر . فعانت معظم المدن الفينيقية ، ومنها صور وصيدون ، الكثير من هذه الغزوة . وأما مصر التي شُغلت في الدفاع عن نفسها . فلقد تخلّت عن الوصاية التي كانت تفرضها على المدن الفينيقية . فنعمت صور بازدهار لا مثيل له بعد أن نهضت من خرائبها . فكانت هذه المرحلة التاريخية أعظم مرحلة عرفها التوسّع الفينيقي .

ومنذ مطلع الألف الثاني . كما نعلم ، أخذ الفينيقيون وخاصة الصوريون يستقرّون في نقاط كثيرة من الساحل المتوسطي ليضمنوا لتجارتهم منافذ جديدة . وبفضل دأبهم وذكائهم وحسن معرفتهم للطرق البحرية . وربما لاستقامتهم في التعامل التجاري ، تمكّنوا من ان يصمدوا في وجه المخاطر ، وأن يوفّروا لتجارتهم الأسواق البعيدة التي حُسدوا عليها فلم يبلغها أحد سواهم .

ووسّعوا حدود العالم المعروف ، وتجاوزوا الشواطئ المتوسطية ، ليستقرّوا على تخوم العالم الغربي . في قادس ولكسوس ، من ناحيتي مضيق جبل طارق . وأسّسوا في غضون حرب طروادة أوتيك في تونس ، وأقاموا بعد ذلك بقليل في حضرموت (سوس الحالية) . واحتفظوا لأنفسهم بالساحل الأفريقي المواجه للشرق . وفي ذلك الوقت ، استكملت صور رقابتها الاقتصادية على ساحل صقلية الجنوبي وعلى سردينية وجزر الباليار ومالطة وبنتيلارية .

وحكم ملوك صوريون قبرص خلال قرون طويلة، وأقام الفينيقيون مراكز تجارية في كريت وفي دلتا النيل.

وأنشأوا مدينة قرطاج على السواحل الأفريقية التي خضعت لرقابتهم دون سواهم، فتمكّنت قرطاج من ان تنوب عن صور في السيادة على حوض المتوسّط الغربي.

وتنازلت صور شيئاً فشيئاً عن قوّتها لقرطاج، بعد أن اشتدّت عليها وطأة الاجتياح الأشوري.

وخضعت المستعمرات الصورية طوعاً أو كرهاً لسيطرة قرطاج. وعندما استولى الاسكندر على صور سنة ٣٣٣ ودمّرها بعد أن قاوم أهلها بضراوة، فإنما المدينة وحدها هلكت. واستمرّت امبراطوريتها بعدها بقرنين، وارتبط مصيرها بقرطاج.

٣ – **تأسيس قرطاج**. — ان بعض الحقائق التاريخية والأساطير التي وصلت إلينا عن تأسيس هذه المدينة لا يسوق لنا سوى القليل من المعلومات الدقيقة. ولكنّا نعلم أن أليسّا، مؤسسة قرطاج والمعروفة بديدون، اللقب الشعري الذي أطلقه فرجيل عليها، هي أخت بيغماليون، ملك صور.

ونكاد نجهل كل شيء عمّا يتعلّق بسلالة أليسّا وبيغماليون فهل يتحدّران من أحيرام ملك صور الذي عاصر سليمان وكان صديقه؟

هذا أمر محتمل. أم هل يتحدّران من الملك إيتوبعل؟ يكاد يكون ذلك مؤكداً. فلقد عرفنا ذريّة هذا الملك بواسطة روايات تاريخية وتوراتية وشعرية.

فعندما استوى إيتوبعل على عرش صور في سنة ٩٣٣ قبل المسيح. كانت المدينة قد بلغت أوج قوّتها وشهرتها. بينما مملكة اسرائيل تمرّ في فترة انحطاط، إذ استولى ملوك اليهودية على قسم من مدن الجنوب، وبني آحاب ملك اسرائيل بحكم في الشمال. وآحاب هو الذي زوَّجه إيتوبعل، بابنته «إيزابل»، كما كانت «آتالية»، ابنة آحاب. وحفيدة ايتوبعل، زوجة للملك اليهودية. وبعد بضع سنوات خلف «متّان» جدّه إيتوبعل على رأس مملكة صور، فواجه كثيراً من المشاكل السياسية والدينية التي احتدمت عند موته. وترك ولدين أليسّا وبيغماليون. وتقع أسطورة تأسيس قرطاج في هذه الفترة التاريخية.

ولا يستبعد ان تكون أليسّا قد جلست على العرش، وتزوَّجت آشرباس كبير كهنة ملكارت. وبعد أن أرسل بيغماليون. أحدهم فقتل صهره. عزمت أليسّا على الهرب. برفقة جماعة كبيرة من الأشراف. الذين أخذوا بصحبتهم عدداً كبيراً من عامّة الشعب الساكنين في جوارهم. كالبحّارة والأجراء والعبيد وغيرهم. وأبحروا تراكبهم. فوصلوا الى قبرص التي كادت السيطرة الفينيقية تشملها

بكاملها. ولا عجب إذا لاقى الفارّون استقبالاً حسناً، لأن كبير كهنة الجزيرة كان يشاطر الملكة أليسّا معتقداتها وآمالها. وقرّر أن يرافقها مع جماعته الى منفاها، فأكّدت له الملكة، اعترافاً بجميله، أن ذرّيته ستتمتّع في المدينة الجديدة بالوظائف والامتيازات الكهنوتية. وأفاد الفارّون من التوقّف في قبرص، فضمنوا لمدينتهم سلالة من الكهنة وعدداً كبيراً من الزوجات. فبينما كانت جماعات من الفتيات تغنّين على شاطئ الجزيرة حسب تقليد ديني، اختطفن لتسكنّ قرطاج.

وبعد إبحار طويل، وصلت أليسّا مع أتباعها الى الساحل الأفريقي، ونزلت في بقعة لم يقع الاختيار عليها صدفة. وكان في هذه البقعة موقع فينيقي لا نعرف اسمه الأول، فسمّت أليسّا هذا المكان «قرت حدشت» أي المدينة الجديدة. وما كادت قدمها تطأ الشاطئ حتى اتصلت بأهالي البلاد الأصليّين واستطاعت ان تحصل من رئيسهم على أن يمنحها من الأرض مقدار ما يحتويه جلد ثور. فأمرت الملكة بتقطيع الجلد الى أشرطة دقيقة، وأحاطت بواسطتها ببقعة أرض واسعة استطاع أتباعها أن يقيموا فيها. وانتظم التبادل التجاري مع أهالي البلاد الأصليين، وأقبل سكّان أوتيك، المستعمرة الفينيقية الواقعة على بعد عدّة كيلومترات من شمال قرطاج، ليزوروا مواطنيهم، بعد أن بلغتهم شهرة أليسّا، وعرفوا نفوذ أصحابها.

ونمت المدينة . وأسهم تأثير الملكة في غناها . فتقدّم ملك من ملوك البلد الأصليين . اسمه «هيارباس» وطلب أن يتزوّجها . ولم تستطع أليسّا أن ترفض طلبه . لأن ذلك الملك كان قويّاً وقادراً على أن يهدّد أمن مدينة قرطاج التي ما برحت عاجزة عن مجابهة الحرب .

وطلبت إليه أن يمهلها بعض الوقت . وتقول الأسطورة إن الملكة نصبت بعد ثلاثة أشهر من ذلك . مَحْرَقة كبيرة عند أبواب المدينة . وقرّرت أن تقدّم ذبيحة لروح زوجها الأول . وبعد أن أهلكت ضحايا كثيرة . ارتمت بدورها في المحرقة . فماتت وظلّت تكرّم بعد ذلك . في مكان موتها ، مثل إلهة ، حتى سقوط قرطاج .

تلك هي أسطورة تأسيس قرطاج التي رواها «تيمه» المؤرخ الصقلّي . و«تروغ يوميه» .

ولا شك إن هذه الرواية . رغم كونها خرافية . تحتوي على أسس تاريخية ثابتة .

فاسم بيغماليون الذي شاع استعماله في قرطاج . وُجد مكتوباً في النقوش ، والوشائج البنوية التي تربط قرطاج بصور ، أكّدتها قصّة تلك البعثات التي كانت تنطلق كل سنة من قرطاج ، لتحمل الجزية الى الوطن الأم . بمناسبة عيد ملكارت ، كما أشير في الأسطورة ، من خلال الكلام على منصب أرشباس الكهنوتي . الى عبادة ملكارت

وأهميتها في قرطاج ؛ وما رُوي حول كاهنَ قبرص الأكبر، وحول خطف العذارى، يدلُّ على عادة الوراثة في الكهنوت. وعلى أهميّة العنصر القبرصي في المدينة الفونية. ولا يغرب عن بالنا أن قرطاج ظلَّت تدفع الجزية كل سنة لملوك البلاد الأصليين، طيلة قرون أربعة.

وأشير الى عبادة أليسًا، في الوقت نفسه الذي سقطت فيه قرطاج، أي بعد سبعة قرون من موت الملكة، التي ضحّت بنفسها في معبد قريب من المرفأين. وكشف التنقيب مؤخّراً، غرب المرفأ المستطيل الشكل، عن مكان تقديم الذبائح في قرطاج. واستُخدم هذا المذبح منذ تأسيس المدينة الفونية، وأقيم على معبد صغير، يرجع عهده الى زمن المركز التجاري الأول الذي أنشأه الفينيقيون، قبل تأسيس المدينة الفونية الكبيرة بأربعة قرون على الأقل.

١ – الطوبوغرافيا

لا شك أنه كان في قرطاج، قبل أن تؤسس أليسًا «المدينة الجديدة»، مركز تجاري فينيقي، ولكن تحديد موقع المدينة الأساسي ما زال يثير الجدال حتى الآن. فلقد رأى بعض المؤرّخين وعلماء الآثار أن أول موضع استقرّ فيه الفينيقيون كان قريباً من شاطئ برج جديد الضيّق. ويعتقد آخرون بأن علينا ان نبحث عن مقام الفينيقيين الأول بالقرب من مرفأي سلمبو. فالاكتشافات الأثرية أثبتت صحّة هذا الرأي الأخير. والحقيقة إن أقدم طبقات الأرض في مذبح

سلمبو يرجع عهدها الى الأيام الأولى من تاريخ قرطاج. وبالاضافة الى ذلك. اكتشف «سنتاس». في ربيع سنة ١٩٤٧. أثراً صغير الحجم يحتوي على بقايا من الخزف الفينيقي القبرصي. يعود تاريخها الى أواخر العصر البرونزي. وهذا يؤكد صحّة الرأي الثاني. فقرطاج قامت أول ما قامت في غرب المرفأ المستطيل الشكل. كما انبسط في المكان نفسه المركز التجاري الذي سبق وجود المدينة (انظر الخارطة في صفحة ٥٢ – ٥٣).

وبوسعنا أن نفترض أن سوراً بدائياً كان يحيق بمرفأي المدينة، وبمذبح سلمبو، وبالقلعة الرابضة على تلّة سان لويس.

وأما المدافن التي اكتشف عدد كبير منها عند أبواب قرطاج فهي تحدّ المدينة من الشمال والشرق. ويمتدّ مخطّط السور في هذه المرحلة من التاريخ من البحر جنوباً الى تلّة جونون شمالاً. ويمرّ من الغرب بمذبح سلمبو لينتهي عند «دويماس – درمساش» شرقاً. ولكن لا يستبعد أن يكون القرطاجيون قد لاحظوا منذ القرن الخامس قبل المسيح. وهم في أوج قوتهم. ضيق السور القديم، فعمدوا الى إنشاء تحصين أوسع، يكاد يحيق بشبه الجزيرة بكاملها، وبنوا سلسلة من الجدران يبلغ طولها ٣٢ كيلومتراً. (ولا يخفى علينا أن طول محيط مدينة باريس يبلغ أيضاً ٣٢ كيلومتراً).

وامتدّ القسم الأكبر من هذا التحصين على طول شاطئ البحر،

ولم يكن من هذه الجهة سوى سور بسيط مدعوم في بعض أجزائه. بينما بُني من ثلاثة أسوار في القسم الذي يفصل قرطاج عن القارة الافريقية. ويصل بحيرة تونس «بسبكرا» التي بقيت الى ذلك الوقت مفتوحة على البحر.

وتكوّن السور الأول المطلّ على البرّ من الردم الذي يثبّته صف من الدعائم. وكانت هذه الدعائم تسند جداراً صغيراً يقوم الجند في أعلاه بالمناورات. وأما السور بحصر المعنى، فيبلغ علوه ١٧ متراً، وكثافته عشرة أمتار. وهو مبنيّ بالحجر المقصّب. ومسلّح بأبراج بارزة مؤلفة من أربع طبقات. ويفصل بين البرج والآخر مسافة ٥٩ متراً. وينبسط بأعلى هذا السور طريق محميّ بجدار وطيء. تتخلّله فتحات ترمى منها السهام، مما يجعل هذا السور صعب المنال. وأعدّ الجزء الداخلي من التحصين الواسع بطريقة خاصة، ليأوي إليه الفيلة والخيول، وليحتوي الثكن ومخازن الادارة التي ترعى حاجات الجيش. وبدا للقرطاجيين، أسياد البحر، ان مخاطر الغزوات البحرية ليست بذات أهمية، فلم يولوا السور من جهة البحر العناية التي أولوها للتحصين البرّي. ورغم ذلك، ما زال يمتدّ حالياً على طول الشاطئ، بين سلمبو وبرج جديد، جدار مبنيّ من الحجارة الضخمة. والقسم السفليّ من هذا الجدار روماني، يتوافق تماماً مع طرق التخطيط التي لجأ إليها الرومان عندما أعادوا بناء المدينة سنة ٤٤ قبل الميلاد. وأما هذه الحجارة الضخمة، التي رُصفت في البحر

رصفاً منتظماً ، فهي تتّصل بإحكام بموقع استراتيجي رحب . مربع الاضلاع . لا يختلف انتظام الحجارة فيه عمّا هو في الجدار البحري . ويبلغ طول هذا الموقع الاستراتيجي الضخم خمسين متراً ، وعرضه خمسة وثلاثين متراً . وهو مبنيّ بالحجارة الكبيرة ويظهر في البحر عند أقدام برج جديد . ولا شكّ أنه فونيّ . فالمدينة الرومانية لم تحصَّن إلا في زمن متأخّر ، في أيام الامبراطورية البيزنطية ، وأتى تحصينها على عجل . لذلك لا يمكننا ان ننسب إليها هذا البناء الجبّار . فهل كان قاعدة حاجز بحري أم هل كان قلعة تلتصق بالسور البحري وبتحصين يمتدّ من الغرب؟ الحقيقة أن السؤال يبقى مطروحاً .

ومنذ بضع سنوات . كُشف عن جدار يبلغ طوله بضعة عشر متراً . وكثافته ثلاثة أو أربعة أمتار . على بعد أربعة كيلومترات من خليج كرام وعلى أطراف بحيرة تونس . ولقد بني هذا الجدار بالحجارة الكبيرة واستند الى أساس بلغت كثافته ثلاثة أو أربعة أمتار . وهو ليس على ما يبدو سوى بقايا سور بحري .

٢ – القلعة

كان يطلق عليها اسم «بيرسا» . وهي موضع محصّن ومحميّ أشدّ الحماية . يطلّ على المرفأين وعلى أول مركز تجاري أنشأه الفينيقيون . وتربض هذه القلعة على تلّة تدعى سان لويس .

ويحيط بها سور، وربما سوران، أحدهما يحيق بسفح التلة والآخر. بمعبد أشمون الذي يتنصب في الذروة. ويصعد الناس الى القلعة بعد أن يقطعوا ستين درجة كبيرة. وقد بقيت لآخر المدافعين عن قرطاج الملاذ الأخير.

وأما بقايا الأسوار الضخمة التي ما زالت في سفح التلّة الجنوبي الغرّبي فقد اعتبرت مدّة طويلة بأنها أعلى أسوار شيّدها الدفاع الفوني ولكن لا صحّة لشيء من ذلك فهذه البقايا تغمر في الواقع أبنية فونية يرجع عهدها حسب قطع النقود التي وُجدت فيها الى القرن الثالث قبل المسيح، ولا علاقة لتلك البقايا بهذه الأبنية، فتوجّه الأسوار الفونية يتميّز بانحناء، وطريقة بنائها مختلفة تماماً، فمن المحتمل أن يكون قد بناها إمبراطور بيزنطية تيودوس بعد ذلك بعدّة قرون.

٣ – المرفآن

يورد المؤلف أبيان وصفاً دقيقاً عن مرفأي قرطاج: المرفأ التجاري ذي الشكل المستطيل والمرفأ العسكري الدائري الشكل. وليس هذان المرفآن سوى ملجأين اصطناعيين بُنيا داخل سور المدينة.

وربما سهل الدخول الى المرفأ التجاري لأنه كان يوفّر الحماية للمراكب العابرة، فازدهر فيه التبادل التجاري، وأحاط به من جهة البحر صفٌّ من الصخور التي رصفت لحماية الشاطئ. أما مدخلة فيقع مباشرة غرب رأس كرام، ويحميه حاجز محصّن ما

زالت قاعدته القوية قائمة الى اليوم (انظر الخارطة في صفحة ٥٢ – ٥٣) وتتخذ هذه القاعدة شكل مستطيل واسع وتخترقها من جهتها البحرية أقبية صغيرة معدّة لتستقبل الماء فتحدّ من ضغطه عند هياج الموج.

وأما المرفأ العسكري، الذي ألحقت به مصانع السفن فيقيه من أنظار الفضوليين جدار محصّن وسور المدينة. ويشرف بلاط الأميرال على هذا المرفأ ومنه يراقب ليبقى أسطول المدينة وعدّته العسكرية بمنأى عن فضول الغرباء. ولتحفظ أسرار القرطاجيين وطرقهم في بناء السفن من الانتشار. ويتفق اختيار مواضع المرافئ في قرطاج وكذلك في أوتيك مع هذه التدابير الأمنية.

ومنذ بضع سنوات، أثار تحديد موقع مرفأي قرطاج نقاشاً طويلاً. فاعتقد بعضهم أن أول مرفأ في قرطاج كان يتبع للمركز التجاري القديم في برج جديد، ويقع في الخليج الصغير الجاثم على سفح التلّة. ومنذ اكتشاف المعبد الفينيقي الذي يرجع عهده الى أواخر العصر البرونزي، في مذبح سلمبو بات من الواضح ان موضع المرفأين القرطاجيين لا يبعد عن هذا المعبد: ويتأكد لنا ذلك إذا ما التفتنا الى البحيرتين الاصطناعيتين اللتين ما زالتا في الشمال الشرقي من خليج كرام. وتبدو إحدى هاتين البحيرتين مستطيلة الشكل والأخرى دائرية، ويمكن اعتبارهما كعنصرين باقيين من المرفأين الفينيقيين.

وأثبتت الدراسات التي قام بها الأب بوادوبار في منشآت

الفينيقيين المرفئية ، وخاصة في صور وصيدون . ان هؤلاء اعتادوا ان يحفروا داخل البرّ مرفأ اصطناعياً دائرياً عادة . يتصل بمرفأ أمامي مستطيل ، مبني على الشاطئ. ومنذ وقت قريب . دلّت الاكتشافات في صيدون على ان الفينيقيين أقاموا في عرض البحر صخوراً أعدّت لتتكسّر عليها الأمواج ، كما بيّنت هذه الاكتشافات ان الصوريين والصيدونيين برعوا في بناء المرافئ بمقدار ما برعوا في الملاحة .

وامتدّت على بحيرة تونس الملاجئ والارصفة والمراسي . ولم يترسّب قديماً في أعماقها الأوحال الباقية فيها اليوم .

وغاب عن بال بعض المؤرخين ان هذه البحيرات انما هي نفسها المرافئ الفونية القديمة . ويعود سبب هذا الغفول الى تقلّص أبعاد البحيرات التي تغيّر شكلها وحجمها تغيّراً تاماً . وتجدر الاشارة الى أن الحوض الداخلي الذي اكتشف في موتيا في صقلية وحوض المهدية في تونس هما أصغر حجماً .

وتحيط بالمرفأين الارصفة والأكواخ والأروقة الواسعة . وحتى الآن كشف التنقيب عن عدد كبير من قطع الاعمدة والافاريز المجصّصة والمدهونة بالأحمر والأخضر ، بينما لم يُعثر على أي أثر في مكانه الأصلي .

وتنبسط قرب المرفأ الساحة الرئيسية أو الفوروم وتحيط بها الأروقة

وتتمركز فيها الحياة التجارية والإدارية في المدينة. ويرتفع غرب الساحة معبد بعل حمّون المجاور لمذبح قرطاج.

وأما معبد تانيت فربّما كان في منطقة شمالية بين البحر وقلعة بيرسا.

وتتفرع عن الساحة الرئيسية شوارع كثيرة تؤدّي الى موضع مرتفع يقوم عليه معبد أشمون. وتحيط بهذه الشوارع بيوت تتألف من خمس أوست طبقات، وبتلاصق بعضها ببعض. وعُثر في جزيرة يقال لها جزيرة الإمارة على لوحة ذهبية تمثّل بيتاً من أربع طبقات. ونكاد لا نملك سوى هذه الوثيقة الوحيدة عن مساكن قرطاج. ويبدو أن قصور الأُسر الغنيّة تشمخ غالباً في الشمال والشرق في منطقة «مغارا» حيث تنبسط البساتين الواسعة وزراعة الخضار.

وتقع المدافن في المناطق الشمالية والشرقية من المدينة، وتمتدّ من تلّة «جونون» حتى برج جديد.

ولم يُعثر بعد على أقدم القبور، لكنّا نعلم من خلال ما كشف من القبور الكثيرة والمتراصفة ان القرطاجيين استخدموا منذ القرن السابع قبل المسيح المدافن الواسعة القائمة عند أبواب المدينة.

وكانت قرطاج تزوَّد بالماء العذب من الآبار والخزانات وبقيت الينابيع في شبه الجزيرة نادرة جداً. وكشف عن عدد كبير من الخزانات التي يرجع عهدها الى الحقبة الفونية. وفي ذلك الوقت،

جُعل لكل مسكن خاص خزّان تجمع فيه مياه الامطار والمجاري . واستعملت بعض الخزانات لتتلقّى مياه الشوارع التي ربّما بُلّطت لهذه الغاية . ونُسب عدد كبير من آثار هذه الخزانات الى الرومان ، ولكن هؤلاء كانوا قد رمّموها وأعادوا استعمالها .

وبلغ عدد سكان قرطاج في مطلع الحرب الفونية الثالثة ٧٠٠ ألف نسمة حسب ما روى سترابون . ولا شكّ ان هذا الرقم مبالغ فيه ، لكننا لا نعرف نسبة هذه المبالغة لأنّنا نجهل مقدار المساحة المبنيّة من المدينة .

الفصل الرابع

التاريخ

لقد ورد في الأسطورة التي تكلمنا عنها سابقاً أن أليسّا هي التي أسَّست قرطاج «المدينة الجديدة» سنة ٨١٤ قبل المسيح.

١ – قرطاج في العصور القديمة. – نكاد نجهل كل شيء عن تاريخ المدينة القرطاجية في القرن الثامن قبل الميلاد، ولم يعلق في ذهننا من ذلك التاريخ سوى المعونة التي قدَّمتها صور لقرطاج، والنفوذ البالغ الذي حقَّقه لها حكَّامها النافذون والأقوياء. فأصبحت المدينة الجديدة السند الحقيقي للمستعمرات الفينيقية المنتشرة في غرب البحر المتوسّط كما غدَت هذه المستعمرات فيما بعد أساساً لامبراطوريتها. ولم يحوّل الفينيقيون مراكزهم التجارية الى مستعمرات إلا عندما ازدادت سلطة المستوطنين اليونانيين فيها أو عندما خافوا من تمرّد أهل البلاد الأصليين. وكان الفينيقيون إذا ما تهدَّدت مصالحهم في تلك المراكز، يعوّلون على القرطاجيين الذين يرسلون الجند والبحَّارة للدفاع عن مواطنيهم وحماية حقوقهم. وفي القرنين السابع والسادس، أخذت قرطاج تحلّ في هذه المستعمرات محلّ صور التي

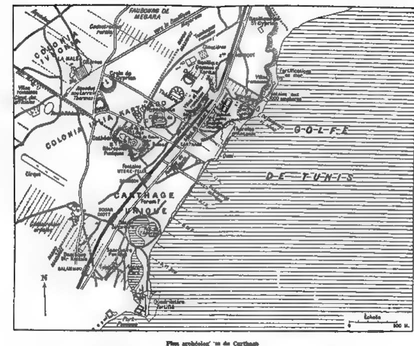
شغلت بمقاومة الاشوريين الغزاة، ومن بعدهم الفرس الذين حاصروها ودمّروها.

ولصور مستعمرات أقدم من قرطاج. تقع في وسط العالم المتوسّطي، وربما تمكّنت ان تلعب دور الحماية الذي لعبته المدينة الفونية، ومن هذه المستعمرات حضرموت وخاصة أوتيك التي لا يتجاوز بعدها عن قرطاج عشرين كيلومتراً، وهي أقدم منها بعدّة قرون. غير أن الاختيار وقع على قرطاج لتصبح «المدينة الجديدة» لأن أصلها ملكيّ ولأن قسماً من ارستقراطية صور قد هاجر مع ثرواته إليها. وهكذا غدت قرطاج صوراً جديدة وذاعت شهرتها لا لموقعها الجغرافي وحسب بل لأنها ورثت أيضاً عن صور دورها التاريخي.

ولا نعرف أسماء القوّاد الأول الذين أمدّوا قرطاج بالوسائل العسكرية والبحرية لوراثة صور.

وفي القرن السابع قبل الميلاد، أسّست المدينة الفونية مستعمرة لها في جزيرة «إيبيسا». وفي القرن السادس استولى «مالكس» على السلطة في قرطاج بعد أن نجحت حملاته العسكرية في صقلية وسردينية وفي أفريقية نفسها.

٢ – الماغونيون. – أسهمت أسرة «ماغون» القرطاجية الغنيّة أكثر من أيّة أسرة أخرى في بناء عظمة المدينة. فلقد أوقف الماغونيون



Plan archéolog' 'ue de Carthage

بين سنة ٥٣٥ وسنة ٤٥٠ قبل المسيح التوسّع اليوناني في المتوسّط . وَرَعَوا التجارة القرطاجية في اسبانية وجزر الباليار وجزيرة سردينية وفي جزء من صقلية .

ورفع هؤلاء عن كاهل قرطاج الجزية التي كانت تدفعها للافريقيين منذ تأسيسها ، وأخضعوا لسيطرتها إمبراطورية واسعة تمتدّ في البحر وفي البرّ الافريقي ، من الساحل الأفريقي الشمالي حتى السنغال . ويعود تاريخ رحلة حنّون البحرية الى هذه الحقبة التي عرفت فيها قرطاج ازدهاراً كبيراً ، إذ شملت سلطتها في أفريقية أراضي تونس الحالية ، وكانت اسبانية من أهمّ مصادر الثروة الفينيقية . فلقد استغلّ الفينيقيون مناجم منطقة « طرطسوس » في جنوب اسبانية منذ زمن بعيد . ويعود تأسيس « غادير » (في الفينيقية تعني « المكان المسوَّر ») التي تسمّى اليوم قادس ، الى القرن الثاني عشر قبل المسيح . ويبدو ان الفينيقيين قد أفادوا من مناجم الفضة في هذه المنطقة قبل ذلك الوقت ، وأخضعوا لسيطرتهم التامّة منذ الألف الثاني قبل المسيح مضيق جبل طارق الذي عرف باسم « أعمدة هرقل » حتى يضمنوا لأنفسهم دون غيرهم الطريق الى المحيط ، فيستأثروا بتجارة القصدير في « بروتانيه » وانكلترّة ، وربّما لينفردوا أيضاً بتجارة ذهب السنغال .

واحتلّوا صقلية منذ مطلع الألف الأول قبل المسيح لكن

اليونانيين غزوا هذه الجزيرة وأجبروا المستوطنين الفينيقيين فيها على التجمّع في بعض المدن، على الساحل الجنوبي المجاور لأفريقية. ومن هذه المدن «موتيه» و«سولوييس» و«بانورمس». أما المدينتان الأخيرتان فتدعيان اليوم «سولونت» و«بالرما».

واحتلّ الفينيقيون جزيرة مالطة وجزيرة بانتلارية وجزر الباليار وقسماً من جزيرة سردينية. واستخدموا هذه الجزر كمحطات بحرية في ملاحتهم التي اعتمدت على الابحار بمحاذاة السواحل. ولم يخلعوا على هذه المراكز، في البدء، أي طابع عسكري ولم يستخدموها إلا ليرسوا مراكبهم فيها، وليتموّنوا منها في توقفهم، وليعثروا فيها على الزبائن لبضائعهم. ويبدو أن اليونانيين بضغطهم العسكري وبمنافستهم التجارية قد أجبروا القرطاجيين على ان يحلّوا بالقوّة في المراكز التي تضمن استمرار علاقات قرطاج التجارية مع بلاد «طرطوس» والتي تفتح أمامهم طريق القصدير والذهب.

ويدلّ التراجع الفينيقي حيال الغزو اليوناني على الطابع الاقتصادي الصرف الذي ميّز المراكز الفينيقية الغربية ويدلّ أيضاً على ضعف الوجود العسكري في تلك المراكز.

والأجدر بنا أن نطلق تسمية اتحاد اقتصادي وبحري على تنظيم قرطاج لسيادتها الخارجية، لأن هذه التسمية أفضل من كلمة امبراطورية للتعبير عن واقع قرطاج الخارجي

٣ – الحروب الفونية. – تغاضت كل من قرطاج وروما عن الأخرى خلال عدّة قرون واشتهرت روما بسيادتها البرية والأوروبية كما اشتهرت قرطاج بسيادتها البحرية والافريقية. وبعد ذلك، توطّدت بين البلدين العلاقات التجارية التي لم يعكّر صفوها سوى طموح روما الفائق الحدّ. فبعد أن استولت هذه على اليونان الكبيرة، أرادت أن تضمّ إليها صقليّة. ونشبت الحرب بسبب خلاف بين أهالي «مسينة» الذين دعمتهم روما وبين أهالي «سيراقوزة» الذين دافعت عنهم قرطاج.

ودُعيت هذه الحرب «بالحرب الفونية الأولى». وحقّقت الرومان أول انتصار في «ميلس» سنة ٢٦٠ قبل الميلاد، ثم حاولوا أن ينزلوا جيوشهم في قرطاج لكن «كسانتيب» دحرهم سنة ٢٥٥. واستأنف القائد القرطاجي هملقار برقة الحرب في صقليّة، إلا أن القرطاجيين انهزموا في جزر «إيغات» في سنة ٢٤١ وأجبروا على طلب الصلح. فكلّفهم السلم غالياً إذا اضطروا الى التخلّي عن صقلية، ودفعوا في عشرين سنة جزية قدرها عشرون مليوناً.

وفي غضون الهدنة التي عقبت هذه الحرب واستمرّت اثنتين وعشرين سنة واجهت القوّتان مشاكل كبيرة. فلقد أشرفت رومة على الهلاك بسبب تحالف الغاليين ضدّها، كما تمرّد المرتزقة في قرطاج لأنه لم يدفع لهم منذ زمن طويل. وخاضت المدينة الفونية حرباً لا هوادة فيها دامت ثلاث سنوات، ونجت منها بفضل عبقرية قائدها هملقار

برقة ، الذي حاصر المرتزقة في طريق بين جبلين يقال له «طريق الفأس» ونكّل بهم وقتل الناجين المحتجزين في تونس.

وعظمت بذلك شعبيّة هملقار برقة فخاف منه مجلس الشيوخ في قرطاج. وأثارت مطالب هذا القائد. الخاصّة بالحكومة والجيش. الشكوك حوله ، فأرسل الى إسبانية حيث أسّس امبراطورية جعل قرطجنّة عاصمتها ، ونظّم جيشاً محترفاً وبثّ فيه روح الطاعة ولم يبخل في الإنفاق عليه. وتسلّم قيادته ابنه هنيبعل سنة ٢٢٠. ق. م

وربّى هملقار هنيبعل على بغض رومة ، ولم يلبث هذا الأخير، عندما بلغ السابعة والعشرين ، أن ورث الامبراطورية القرطاجية في إسبانية ، وخلف أباه في قيادة الجيش. وراح يلغي الاتفاقات التي تهدّد الوطن الأم ، ولذا هاجم سنة ٢١٩ ق. م مدينة «سوغونتة» التي تحميها رومة ، فأدّى ذلك الى اندلاع الحرب. وزحف هنيبعل نحو إيطالية ، واجتاز نهر «الايبر» وجبال «البيرنيه» ونهر «الرون» وجبال «الألب». وتغلّب على كل المحن والعقبات التي واجهته ، وفقد نصف جيشه قبل ان يلتقي بالجيوش الرومانية ، لكنه انتصر عليها في «تريبية» ثم عند بحيرة «تراز يمانة» سنة ٢١٧ ق. م. ولم يستطع أن يزحف في السنة التالية الى رومة ، بسبب النقص في عتاد الحصار ، فشنّ حرب «كان» وانتصر فيها إلا أن انتصاراته أنهكته ، فتراجع الى «كابو» لينتظر

هناك المساعدات . ولم يجده الانتظار نفعاً لأن مجلس الشيوخ في قرطاج دبّت فيه الغيرة من نجاح هنيبعل فرفض أن يمدّه بالمعونة . وسرعان ما أقبل إليه أخوه أسدروبال حاكم إسبانية ، يرافقه الاسبان والغاليون ، لكنه قُتل عند ضفاف « الميتور » سنة ٢٠٧ ق . م . ولم تستطع سيراقوزة ان تنجد هنيبعل لأن رومة استولت عليها . وتمكّن وحده ان يقهر الجيش الروماني في « كالابره » . عندئذ تحالف « سيبيون » الأفريقي مع النوميديين، جيران قرطاجة وَعَزَمَ مهاجمة المدينة الفونية . فدبّ الانفراج في رومة عندما رأت ذاك الذي أرجفها مدّة خمس عشرة سنة يترك إيطاليا . وبعد أن فقد هنيبعل القسم الأكبر من جيشه ، لم يتمكّن من التغلّب على « سيبيون » وانكسر في « زامة » في أفريقية سنة ٢٠٢ قبل الميلاد ، وطلب الصلح . وبدا هذا الصلح قاسيًا جداً لقرطاج التي اضطرّت أن تدفع لرومة أربعة وخمسين مليونًا وأن تدمّر أسطولها الفوني وأن تسرّح جيشها .

وأعلن استقلال النوميديين واعترف بقائدهم « مازينسّة » ملكاً عليهم .

وتعقّب الرومان هنيبعل فالتجأ الى انطيوخس ملك سوريا ، ونصح هنيبعل أنطيوخس بأن ينظّم حلفاً يضمّ أعداء رومة من الشرق الى الغرب . وبعد أن اشتدّت مطاردة الرومان للقائد الفوني

اختبأ في «بيثينة»، لكنه ما لبث ان انتحر هناك سنة ١٨٣ قبل الميلاد. وهكذا عُدَّ من أعظم القواد العسكريين في العصور القديمة ومن أذكاهم بلا ريب.

وبعد نصف قرن من العمل المضني. استطاعت قرطاج أن تستعيد شيئاً من الازدهار رغم الجزية الفادحة التي بقيت تدفعها لرومة. ولاحظ «كاتون» أثناء تجواله في أفريقية هذه النهضة في قرطاج عدوّة الرومان. وبعد عودته الى رومة راح يردّد على مسمع مجلس الشيوخ الروماني عبارته الشهيرة: «يجب أن ندمّر قرطاج».

وشنّت رومة حرباً ثالثة دون أي سبب واضح سوى ما بدا من سوء نيّتها تجاه قرطاج، فتكرّر بذلك ما حدث في الحرب الفونية الأولى. بينما كانت قرطاج تبدي رغبتها في السلام وتسلّم لرومة مراكبها ومعدّاتها الحربية.

وأرادت رومة ان تفرض على قرطاج شروطاً أقسى وأثقل وطأة، فأدرك الفينيقيون أن لا مفرّ من الحرب وقرّوا على المقاومة فدام صراعهم سنتين من ١٤٩ الى ١٤٧ قبل الميلاد.

٤ – حصار قرطاج وسقوطها. – عُرفت قرطاج بترفها وبحبّها للتجارة والمال، كما عُرفت، قبل سقوطها بسنتين. بأسمى الفضائل الوطنية وبالشجاعة التي لا تضاهى.

لقد أباد الرومان جيشها في «نفريس»، وحاصرها عدوّ يملك

قوات ضخمة ، فلم يبقَ لها أيّ أمل بالنجدة من الخارج ، واستخدم سكانها بذكاء وشجاعة كل الوسائل المتوفّرة لديهم ليدفعوا الحصار عن مدينتهم فأنشأوا أسطولاً بأخشاب بيوتهم ، وصهروا الحلى وصنعوا من شعر النساء حبالاً لسفنهم. وأحاطوا ببناء هذا الاسطول بالكتمان ، فنجح في الخروج من المرفأ الداخلي خروجاً مفاجئاً عبر منفذ خفيّ. لكن أميرال الأسطول كانت تعوزه الجرأة ، فأرجأ المعركة لليوم التالي ، وزال عنصر المفاجأة وضاعت منه فرصة ثمينة.

ودبّت المجاعة في المدينة ، غير أنها بقيت تقاوم.

وبعد أن اخفق «سيبيون» عدّة مرّات ، نجح أخيراً في دكّ أسوار المدينة فاخترقها الى المرفأين. وفقدت قرطاج بالتالي أملها بالنجاة ، إلا أنها لم تسقط وظلّت تقاوم ستّة أيام وستّ ليال ، الى آخر بيت وآخر شارع وآخر رجل. كان كل شيء فيها يحارب. وكاد الجميع يهلكون ، لو لم ينجُ في اليوم السابع بضعة آلاف. وبلغ «سيبيون» قلعة بيرسا وأصبح سيّد المدينة.

وفي معبد «أشمون» ، على قمّة التلّة ، أحاط بعض المحاربين بالقائد القرطاجي «هسدروبال» وبامرأته وأولاده وظلّوا يقاومون بعد أن أضناهم القتال واشتدّ عليهم الجوع. وعزم «هسدروبال» أن يذهب سرّاً الى «سيبيون» ليستجدي العفو. وسرعان ما علمت امرأة القائد القرطاجي بضعف زوجها ، فصعدت الى سطح المعبد مع

أولادها ، ونادت سيبيون بهذه الكلمات : «إنني أرجو لك أيها الروماني كل النجاح لأنك تتصرَّف بالحقوق التي تمليها الحرب ، لكني أطلب إلى آلهة قرطاج وإليك أن تعاقبوا « هسدروبال » كما يجب لأنه خان وطنه وآلهته وامرأته وأولاده » . ثم رمت بنفسها مع أولادها ومن بقي من المحاربين في نار أشعلتها لهذه الغاية . وأكملت بهذه التضحية العظيمة المجد البطولي الذي عرفته نهاية قرطاج سنة ١٤٧ قبل المسيح .

الفصل الخامس

الدين

إن عناصر معرفتنا لديانة الفينيقيين في أفريقيا هي متوفّرة الى حدّ ما.

فلقد عُثر في قرطاج على نذور مقدّمة للآلهة. تحمل كثيراً من النقوش التي تشير الى أسماء الآلهة وخاصّة الذين تقرّب إليهم هذه الألواح النقوشية. كما تشير الى اسماء الناذرين المؤلّفة في الغالب من لفظة «إله» مسبوقة بلفظة أخرى. ومن هذه الاسماء مثلاً «هنّيبعل» الذي يعني فضل بعل. و«بودشمون» الذي يعني خادم أشمون.

وتساعدنا هذه النقوش على معرفة عدد كبير من الآلهة الذين كانوا يُكرَّمون في قرطاج.

وتؤلّف «تعرفات الذبائح» مجموعة أخرى من النصوص التي تبرز بصورة أوضح بعض الحقائق حول الدين الفوني. وتطلق تسمية «تعرفات الذبائح» على خمسة نقوش (اثنان منها كاملان) موضوعة في المعابد لتعيّن حصّة الكاهن وحصّة الناذر. حسب قيمة الذبيحة ونوعها.

ولقد تُرجمت هذه التعرفات فظهرت قرابتها من الطقوس الاسرائيلية التي اطّلعنا عليها بواسطة التوراة وخاصة بواسطة «اللاّوي».

وتدلّ المعلومات المستقاة من دراسة الفن الديني ودراسة الزخرف الذي يزيّن النذور على الصلة الوثيقة القائمة بين الدين الفينيقي في أفريقيا ودين الفينيقيين الشرقيين الذي أصبحت معرفتنا له أعمق منذ أن تمّت اكتشافات رأس شمرا. فهذه المدينة الواقعة في شمال سوريا ليست سوى مركز فينيقي يرجع عهده الى الألف الثاني قبل الميلاد، اكتشفت فيه مجموعة من النصوص الدينية تعود الى القرن التاسع عشر قبل المسيح وتوضح لنا الميثولوجيا الفينيقية. فالأساطير المروية في هذه النصوص قريبة جداً من قصائد سفر التكوين وهي تظهر الأساس المشترك بين دين الفينيقيين والدين الاسرائيلي قبل نزول الوحي على موسى.

وتمسّك القرطاجيون بطقوس هذا الدين الكنعاني القديم حتى وقت متأخر ويعود السبب في ذلك الى بعدهم عن الوطن الأم وتشبّثهم بنزعة دينية محافظة تبيّن حرصهم على استمرار الطقوس والتقاليد بمنأى عن التأثيرات الخارجية.

وعرفنا كبار آلهة قرطاج من خلال النصوص الفونية ومن قراءة نص يوناني يدعى «قسم هنّيبعل».

وهناك أكثر من أربعة آلاف نقش فوني. مهداة جميعها الى الربّة تانيت والربّ بعل حمّون. ونكاد لا نجد بينها سوى عشر عبارات تتوجّه

الى آلهة أخرى.

وكان يقصد بلفظة «تانيت» التي قد ترجع الى أصل أفريقي الإلهة الفينيقية الكبيرة إيلات التي تدعى أيضاً أشيرات.

وتمثّل ألواح نقوشية كثيرة هذه الإلهة على شكل كوكب الزهرة يتصل به هلال. وينجم عن هذا الرسم النجمي المزدوج صفة مزدوجة لهذه الإلهة. فهي من جهة تتميّزبرسم قمري يدلّ على مماثلتها للعذراء «كايلستس» في الحقبة الرومانية. وتتميّز من جهة ثانية بصفة الخصوبة التي جعلتها تُعرف باسم «نوتريكس» وتُعرض على صورة إلهة أم يرمز إليها برمّانة أو حمام أو سنابل أو غيرها من الرسوم.

وليس بعل حنون اله قرطاج الكبير إلا نظير الاله إل سيّد البانتيون الفينيقي. ولهذا دعاه اليونان زوس أبا الآلهة. وشبّه بعل حمّون أسياناً بالاله أبولون بسبب رسمه على صورة شمس. وفي الحقبة الرومانية عرف باسم ساتورن في دوغا وقسطنطين وبوقرنين. وكما انتشرت عبادته في قرطاج، انتشرت أيضاً في هذه الامكنة وطابقت عبادة ساتورن ويتضح ذلك من خلال الالواح النقوشية وذبائح الأولاد.

ولفظة «بعل حمّون» تعني سيد الألواح النقوشية. وربّما اشتُقّت كلمة «حمّون» من كلمة «حمّامين» التي تدلّ على الألواح النقوشية. وفيما بعد. لقّب الاله إل في قرطاج «بسيّد الالواح النقوشية»

وذاعت له في القديم شهرة لا تخلو من الرهبة . لأن أبكار قرطاج ، ذكوراً وإناثاً ، كانوا يحرقون أحياء ليقرّبوا إليه في نذور فردية أو جماعية .

وأما الإله أشمون فقد بني له في المدينة الفونية معبد قد يقع على قمّة بيرسا . وأسماء العلم التي تضمّ لفظة أشمون باتت كثيرة الاستعمال . وفي قرطاج كما في صيدون ماثل هذا الإله الإله اسكولاب .

وملكارت ، سيد المدينة ، هو إله صور الكبير وشفيع التوسّع الصوري ، شُبّه بهرقليس لمآثرهما الاسطورية المتشابهة . وانتشرت معابده في كل مكان استعمره الصوريون . وأشهرها معبد قادس ومعبد لكسوس ، وهما مدينتان تقومان على جانبي مضيق جبل طارق .

ويدخل اسم ملكارت في أغلب أسماء العلم القرطاجية ، فاسما « بودملكارت » و« عبد ملكارت » هما من أكثر الاسماء شيوعاً .

ولا يقتصر البانتيون القرطاجي على الآلهة الذين ذكرناهم وإنما يتألّف من آلهة آخرين منهم عشتارت ورشف وآرس وسافون وغيرهم ويطابق البانتيون الفينيقي رغم بعض الاسماء المختلفة .

وصُوِّرت آلهة قرطاج على بعض النقود وعلى كثير من الخزفيات بعد أن خلع عليها المظهر واللباس المعروفين في فنّ الرسم الديني اليوناني . وبقيت العقيدة والطقوس الفونية شرقية في شكلها وفي روحها الى مدى بعيد .

ولم يصل إلينا أي تمثال ديني هام عن قرطاج الفونية. وتطلعنا النصوص على أن بعض هذه التماثيل اعتبرت بمثابة مقام للآلهة.. وهي لم تكن في غالب الأحيان سوى حجر مرفوع أو نصب يعتلي المذبح المعدّ له وفي صور وصيدون ويافوس وقادس كرّم حجر مدهون بالزيت كما هي الحال اليوم في مكه.

ويظهر على الالواح النقوشية المهداة لتانيت وبعل رسوم تشير بوضوح الى هذين الإلهين والى صورتهما وتمثّل هذه الرسوم نصباً وحجراً وأذني إله تصغيان إلى الصلاة، ويد إله تبارك من أعلى اللوح النقوشي حسب تقليد شرقي استمرّ في سوريا بعد أن أصبحت اليد من برونز أو حجر.

وهناك أيضاً رموز أكثر تعقيداً وانتشاراً كالقنّينة الصنم. وهي ليست في الواقع سوى نسخة لتمثال صغير مصنوع من الفخّار وشبيه بالتماثيل القبرصية المصدر. ومن الرموز أيضاً شعار مقدّس هو الصولجان الذي يتألف من دائرتين أو دائرة يعلوها هلال.

وترتسم العلامة التي يقال لها «علامة تانيت» والتي أصبحت فيما بعد ختم قرطاج. لا على الآثار ذات الطابع الديني وحسب بل أيضاً على الآجرّ والمصباح والآنية الخزفية وغيرها «أنظر الرسم في الصفحة ١٠٥».
لكن تسمية هذه العلامة تثر الشك حالياً لأن هذا الرمز يرتبط بالاله بعل بقدر ما يرتبط بتانيت.

وتذكّر الرمانة والحمام والسمك والسنبل بالخصوبة كما يذكّر القمر

والشمس وكوكب الزهرة المشعّ بالطابع النجمي للآلهة.

١ — المعابد

لسنا نعرف معابد قرطاج معرفة حقّة، لكننا نعلم أنها كثيرة. فمعبد أشمون ينتصب على المرتفع المشرف على المدينة، وبات آخر معقل دفاعي اذ لجأ إليه من بقي من القرطاجيين عندما حاصر سيبيون المدينة كما أن امرأة هسدروبال قد رمت بنفسها مع أولادها من على سطحه فماتوا جميعاً.

وتقوم معابد بعل حمّون وتانيت قرب البحر، على مسافة غير بعيدة من المرفأين.

وقد نتمكّن من تحديد موقع معبد تانيت على التقريب إذا ما استعنّا بالالواح النقوشية الكثيرة التي عُثر عليها بين محطة درماش والبحر. واكتشف في غرب المرفأ المستطيل، في الموضع الذي يقال له حالياً سلمبو، معبد بعل حمون أو بالأحرى كشف عن المذبح وقطعة الأرض المسوّرة المخصّصة للذبيحة البشرية، كما كُشف هناك عن المعبد الذي كُرّس فيما بعد للاله ساتورن.

ولم يُعثر على أيّ أثر لبنيان هام، وليس في ذلك ما يدعو الى الدهشة، لأنه يبدو ان القرطاجيين قد حرصوا في بناء معابدهم على اختيار الامكنة المشرفة وهم يقلّدون بذلك الكنعانيين الذين بنوا معابدهم في المواقع العالية.

وتشمل أمكنة العبادة هذه ساحة رحبة مربّعة الزوايا ومسطّحة يحيط بها جدار يقوم في داخله المصلّى الذي يحتوي على صورة الإله. واتّخذ هذا المصلّى منذ مطلع القرن الرابع قبل المسيح هيئة معبد يوناني كلاسيكي صغير، لكنه استوحى بادئ ذي بدء الأبنية المصرية المدعوّة ناووس. والناووس هو مصلّى مكعّب مبنيّ بالحجارة الضخمة في أغلب الأحيان، يعلو واجهته الرئيسية إفريز وزخارف مختلفة.

وبالاضافة الى ذلك، يقوم داخل السور حوض التوضّؤ إذ اكتشفت منذ وقت قريب في مذبح سلمبو آثار أحواض وآبار. ويشمخ داخل الجدار أيضاً مذبح أو عدّة مذابح مرتفعة عادة لكي يتمكّن المؤمنون من متابعة الذبيحة. وتتّصل بالسور أيضاً مواضع خاصّة بالكهنة.

ولا شك ان غنى هذه المعابد المليئة بالنذور والأشياء الثمينة المقدّمة لآلهة يثير الدهشة. وكما نعلم، عُثر في هذه المعابد على كؤوس وأحواض وآنية من ذهب.

وينتصب قرب المصلّى داخل الجدار عمود منفرد يسند تمثال مخلوق ميثولوجيا أو رمّانة.

٢ – الاكليروس

يدعى الكهنة غالباً في النصوص الفونية باسم «كوهن». ولم تكن الكاهنات نادرات بل حملت الكثيرات منهنّ لقب رئيسة كهنة وربّما

أطلق هذا اللقب على من تسلّم أعلى وظيفة في المراتب الدينية الفونية. ووردت ألقاب دينية أخرى كأمير كهنة وكهنة من المرتبة الثانية وأزواج عشتارت وغيرها.

ويبدو جلياً من خلال الانساب المشار إليها في النذور ان الوظائف الدينية العليا كانت غالباً وراثية مثل سائر الوظائف المدنية الرفيعة. ولا يخالف الواقع ما ذُكر عن كبير كهنة قبرص الذي طلب الى أليسا عند تأسيس قرطاج أن تخصّ أسرته بالكهنوت الوراثي.

وتمتّع الكهنة ببعض الامتيازات الأساسية وبالتأثير الحقيقي ولكن يبدو أن سلطتهم لم تتجاوز حدود العبادة.

ويتألف اللباس الكهنوتي من ثوب كتّاني طويل وشفّاف ويمتدّ عند الكتف اليسرى منه شريط مستقيم، ويربط الكاهن شعره برباط من المعدن الثمين، وأحياناً يغطّي رأسه بقبّعة عالية شبيهة بالطربوش.

وترتسم صورة امرأة على غطاء تابوت رائع عُثر عليه في مدفن سانت مونيك وما زال يعرض في متحف قرطاج. وقد يمثّل هذا الرسم كاهنة ترتدي لباس الإلهة التي تخدمها وتغطّي رأسها بوشاح ويكسو جسمها جناحان طويلان وتحمل باحدى يديها حمامة وبالأخرى بجمرة للبخور.

ويدور في فلك الكهنة عدد من الاشخاص التابعين، ومنهم الحلاّقون المقدّسون والموسيقيون وحملة المصابيح وغيرهم.

٣ – العبادة

ان معرفتنا لطقوس العبادة القرطاجية ما زالت غير كافية ، فالأعياد الكبيرة التي احتفل بها الفينيقيون في الشرق بمناسبة الأحداث المهمّة من التقويم الحقلي ربمّا عُرفت أيضاً في قرطاج ، ولكن تعوزُنا البراهين لاثبات ذلك . وتشير قطعة من النقوش الى عيد كان يستمرّ خمسة أيام تقريباً من كل سنة ، ويقع في الربيع دون شك لأنه تقدّم فيه للآلهة بواكير الزرع ، والاغصان المزهرة وغيرها . ويُظلّ في الوقت نفسه في فينيقيا عيد كبير هو عيد قيام ملكارت . وغاية هذا العيد هي بعث الحياة في الاله بواسطة قوة النار ، ولا نملك أي دليل على ما إذا احتفل به أيضاً في قرطاج ولكن لا يبدو ذلك بعيداً عن الواقع إذ إن اسم الاله ملكارت لاقى في قرطاج رواجاً بين الشعب كما يتبيّن من دراسة أسماء الأعلام .

وأما الفعل الديني الذي يشترك به المؤمن في الحياة الدينية فهو في الأساس الذبيحة . فالقرطاجيون يقدّمون الذبائح ليكسبوا حظوة الآلهة وليخفّفوا من غضبها ، وليكفروا عن خطاياهم .

وللذبيحة نتيجة مزدوجة فهي تحرّر المضحّي قبل كل شيء من خطاياه بواسطة ضحيّة يهلكها بعد أن يشبّه نفسه بها ، ثم إن الذبيحة تربط المؤمن بالاله وتعقد بينهما تحالفاً حقيقياً .

وتعرض لنا «تعرفات الذبائح» الآتية من قرطاج الطرق الرئيسية .

المعتمدة في تقدمة الذبيحة وتعين الحصص التي ترجع الى كل من الكاهن والمضحّي حسب الحيوان المقدّم والذبيحة المقرّبة. ولقد درس «دوسّو» هذه التعرفات وأظهر في الوقت نفسه قرابة الطقوس الفونية من الطقوس العبرانية.

والذبائح ثلاث - مُحرقة وفيها تُتلف الضحيّة كلياً بالنار، وذبيحة الاشتراك، وذبيحة التكفير.

وتعتبر ذبيحة الأبكار التي نقع على ذكريات كثيرة منها في التوراة، جزءاً من أقدم التقاليد الكنعانية. ولا شك ان هذا النوع من الذبائح قد عُرف في قرطاج واستمرّ فيها الى زمن متأخّر، بعد أيّة مدينة أخرى. ولم يقدّم الرضّع كذبيحة «مُلك» لبعل وحسب بل كان يقدّم أيضاً أولاد أكبر سنّاً عندما تدفع الظروف الخطرة بالمؤمنين الى ان يوثقوا الصلات التي تربطهم بالآلهة.

وتؤيد الاكتشافات التي تمّت في قرطاج منذ عشرين سنة هذه الحقائق. فالمذبح الذي كشف عنه في سلمبو في الشمال الغربي من المرفأ المستطيل هو شبيه بمذبح «بيت حنّون» الذي عُثر عليه في أورشليم. وليس هذا المذبح الأخير سوى قطعة من الأرض محدودة ومكرّسة ومخصّصة لدفن الضحايا المقدّمة كذبائح لبعل. فالآجرّ التي تحتوي على العظام المحروقة، وأحياناً على بعض التمائم، تُطمر في هذا المذبح ويعلوها لوح نقوشي. وكانت هذه المساحة المكرّسة في أقدم عهدها ذات أبعاد

ضيّقة، توضع الآجر فيها داخل تجاويف الصخر وتغطّى بطبقة من الحصى الدقيقة. وعندما تصبح هذه القطعة المسوّرة ممتلئة، تُطمر بطبقة من الرمل الأصفر. ثم تدفن فيها من جديد مجموعة من الآنية التي تحتوي على رفات المولودين الجدد. وكانت هذه الآنية تجمع كل ثلاثة أو أربعة منها ليعلوها لوح نقوشي أو حجر كبير مقصّب. وفي الطبقات العليا تحلّ الأنصاب محلّ الألواح النقوشية المزخرفة.

ويبدو دين القرطاجيين قريباً جداً من دين فينيقيّي الشرق. فالآلهة الكبيرة في قرطاج تستتر وراء الألفاظ المختلفة وتحتفظ بطابعها الشرقي. وتدلّ الطقوس، الجامدة في تقليد قاس، على الإيمان العميق. وعلى الاعتقاد بالبقاء الطوباوي للشخص المضحّى به، وعلى عادة الخضوع لمعتقد والقبول به بحريّة.

وترسّخت العبادات الفونية تحت الاحتلال الروماني في جميع المناطق البعيدة قليلاً عن تونس والباقية بمنأى عن تأثير الكتائب الرومانية. وفي قرطاج نفسها بقيت عبادة كبار الآلهة القرطاجيين معروفة بعد أن اتخذوا أسماء لاتينية.

وتدلّ سرعة انتشار المسيحية في افريقيا الشمالية، والعظمة التي بلغتها الكنيسة الأولى في قرطاج بإيمانها وشهدائها ولاهوتيّيها على الخميرة الطيّبة التي تركتها الميزات السامية للدين الفوني في نفوس السكان الأصليين. ويطابق تقريباً عصر نشأت المسيحية في القرن الثاني عصر المراكز الفونية في أفريقيا.

الطقوس الجنائزية. - ما زالت معرفتنا للطقوس الجنائزية غير كافية رغم اكتشاف عدد كبير من المدافن في قرطاج.

ويبدو أن الأموات لم يكونوا موضع عبادة، لكن الاحتفالات التي أحيط بها الميت هدفت إلى أمرين: فهي تضمن له قبل كل شيء النعم الالهية في العالم الآخر ثم إنها تحفظ من الانتقام الذي قد يحتدم في النفس التاعسة.

وتحمل بعض الألواح النقوشية التي اكتشفت في مذبح سلمبو زخارف تتعلّق بخلود النفس، ومن هذه الزخارف الأوراق المصوّرة على شكل قلب، وأكاليل الورق، والآنية الخمرية. ويكتمل فن التصوير هذا ببعض المشاهد عن الولائم الجنائزية.

الفصل السادس

المؤسسات والعلاقات الخارجية

١ – التنظيم السياسي

ان ما نعرفه عن المؤسسات السياسية في قرطاج يعدّ غير كاف كما أننا نكاد نجهل كل شيء عن مؤسسات الفينيقيين السياسية، غير أن التوراة تعرض علينا بطريقة غير مباشرة بعض المعلومات عن صور، فقد تمتّعت هذه المدينة مثل كل مدن فينيقيا باستقلال كامل، وبحكم ذاتي تجسّد في ملكية وراثية. وكان يختار الملك مبدئياً، عند تبدّل السلالة الحاكمة من أعرق الأسر التي ترجع الى اصل إلهي.

ومنذ عهد بعيد جداً، أخذ يحدّ سلطة هؤلاء الملوك مجلس شيوخ يُنتقى أعضاؤه من الأسر الغنيّة. وشيئاً فشيئاً راح هذا المجلس يفرض نفوذه وفي القرن الخامس قبل الميلاد شرعَ يؤسّس جمهورية يرئسها قاضيان ينتخبان لسنة واحدة أو لعدّة سنوات.

ويبدو أن تنظيم قرطاج السياسي قد مرّ تقريباً في هذه المراحل التاريخية التي مرّت بها صور.

وتروي الاسطورة عن تأسيس قرطاج، أن الملكة أليسّا صَحِبَت الى

أفريقيا أعضاءً من مجلس الشيوخ الصوري وهكذا نجد في الأصل إشارة الى ملكية قرطاج يساعدها في الحكم مجلس شيوخ.

ومنذ القرن السادس قبل المسيح ورد ذكر مجلسين: مجلس شيوخ، ومجلس نواب ينتخبهم الشعب.

ويحدّثنا هيرودتس عن رجل أصبح ملكاً بفضل قيمته الشخصيّة، فيظهر لنا بذلك ان الملكية الانتخابية قد حلّت محلّ الملكية الوراثية. ويبدو أن اسرة الماغونيين الغنية تمكّنت من أن تمسك بزمام الحكم طوال القرن الخامس دون ان تلجأ الى قلب السلطة، بفضل نفوذ ماغون وتأثير أبنائه، وبفضل النجاح الذي كلّل أعمالهم البحرية والعسكرية. ولقد أنشئ في هذه الفترة مجلس يتألف من مئة قاض حفاظاً على سلطة الدولة من استبداد الحاكم الفرد.

والمعلومات التي يمدّنا بها المؤلفون القدماء في القرن الرابع هي أكثر دقّة.

فلقد كان هناك مجلسان: مجلس شيوخ يضمّ ثلاث مئة عضو على الأقلّ؛ ومجلس دائم ينتقي أعضاؤه من بين أفراد مجلس الشيوخ. ويدير دفّة الحكم قاضيان لمدّة سنة واحدة، وربّما أعيد انتخابهما. وأما السلطة العسكرية فقد آلت الى أيدي قادة ينتخبهم مباشرة مجلس المواطنين

ويطرح القاضيان القضايا الأساسية المتعلقة بالحكم أمام مجلس الشيوخ، فإذا لم يستطع هذا الأخير أن يقرّر بأغلبية كافية يُعمد الى

الشعب لأصدار القرار النهائي.

ويجتمع مجلس الشيوخ في قصر يقع في الساحة الكبيرة بين بيرسا والمرفأين وتعقد بعض جلساته في معبد أشمون.

ويقوم مجلس المواطنين بانتخاب القضاة والقواد. ويفصل الخلافات التي قد تنشب بين هؤلاء ومجلس الشيوخ.

وما زلنا نجهل الشروط المحدّدة التي تؤهّل المواطن لأن يكون ناخباً ولكنا نعلم ان حق الانتخاب قد حظر على الغرباء والعبيد والمعتقين. وتجدر الأشارة الى ان الفلاسفة القدماء قد أعجبوا بدستور قرطاج واعتبروه الى جانب دستور «لاسيديمونة» من أشهر دساتير ذلك الزمن.

٢ – الحياة الاجتماعية

احتفظت بعض الأسر العريقة والغنيّة، التي يرجع أصلها الى مدينة صور بمراكز الدولة ووظائفها الأساسية.

لكن القرطاجيين لم يكونوا عنصريين، فغالباً ما تزوّجوا بالنساء الاجنبيّات. ولقي أهل الشرق واليونانيون المنفيّون من وطنهم، وسكان مالطة وصقلية، أحسن استقبال في قرطاج، وحصلوا في فترة قصيرة على الجنسية القرطاجية بعد أن برهنوا عن جدارة ونجاح.

وكان العبيد الكثيرون، وغالبيتهم من أصل أفريقي، يعاملون معاملة حسنة. وقد سمح لهم القانون بالزواج، كما أعتقوا مراراً.

أما النساء فكنّ يتمتّعن باستقلال كبير ويمثّلن غالباً على النذور ويرتقين الى أرفع الوظائف الدينية كما أن بعض القرطاجيات بلغتنا أسماؤهنّ مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بمصير المدينة ، ومن هذه الاسماء-أليسا وسوفونيسب امرأة هسدروبال.

وهناك قبور يعود عهدها الى أقدم الفترات ، قد أعدّت بصورة دائمة تقريباً لتسع اثنين. ويبدو أن تعدّد الزوجات لم يُعرف في قرطاج.

١ — اللباس. — يأتي أفضل الوثائق التي نملكها عن لباس الفينيقيين من الرسوم التي عُثر عليها في القبور المصرية. فالرجال النحفاء والعصبيّون يرتدون ثوباً طويلاً فاقع الألوان مزيناً بخطوط من التطريز ، وفي قرطاج ، تلبس هذه الثياب التي تنزل حتى الأقدام فضفاضية أو تربط عند الخصر بحزام مطرّز وتبدو أكمامها واسعة وقصيرة.

ويرتدي القرطاجي في السفر أو في الطقس الرديء معطفاً يُبكل بأبازيم شبيهة بالدبابيس المستعملة حالياً والتي يقال لها « الدبابيس المزدوجة ».

وترتدي النساء كذلك ثوباً قصير الأكمام ، مشدوداً عند الخصر ، ووشاحاً ذا أثناء يهبط حتى الأقدام تقريباً. كما يلبسنَ نعالاً ،

ويرخي الرجال غالبًا لحاهم ، ويبقى شعرهم قصيراً ويغطّون رؤوسهم إما بقبّعة مخروطية أو بقلنسوة تشبه الطربوش التركي والشاشية التونسية.

وتنسدل شعور النساء طويلة متموّجة ، ويلبسن حلى كثيرة ويتبرّجن دونما اعتدال . فالشعب الذي كان يتجمهر في بعض الأحيان في ساحة قرطاج الكبيرة يبدو شبيهاً جداً بالشعب التونسي الذي يتجمّع في بعض الأعياد ويظهر للعين أشدّ زهواً من القرطاجيين القدماء .

٢ – السكن . – لا نملك عن المساكن القرطاجية إلا المعلومات التي وصلت إلينا من مِنْجَد اكتشف في جزيرة الإمارة ، مزيَّن برسوم تمثّل واجهة بيت من أربع طبقات . ونعلم من خلال النصوص الكلاسيكية ، ان منازل عالية تتألف من عدّة طبقات كانت تصطفّ من الساحة العامة حتى القلعة وتفصل بينها شوارع ضيّقة .

*

ومنذ بضع سنوات ، صدر كتاب يتكلم عن مدن بلاد سبأ ويتضمّن مجموعة من الصور الجديدة بالاهتمام عن بعض المدن الواقعة في جنوب شبه الجزيرة العربية والتي تكاد تكون مجهولة . وتتألف هذه المدن التي تحيط بها أسوار عالية محصَّنة من مبانيَ كثيرة مزدحمة ، ترتفع بمقدار ست طبقات ، فالطبقة السفلى معدّة كمخزن يدخلها الضوء من الأبواب . وتتلقّى السطوح مياه الشتاء فتحوّلها الى بركة تجمع فيها داخل فناء الدار . وتبدو طريقة هندسة هذه المدن قديمة جداً فهي تعيد الى ذهننا هيئة المدن الفينيقية عامة وقرطاج خاصة وتدلّ على كثافة السكان فيها . وأما في ماغارا في ضواحي قرطاج فقد شيّدت مساكن رحبة

تملكها الأسر القرطاجية الغنيّة وتحيط بها بساتين كبيرة.

٣ – الجيش

لم يدافع عن قرطاج طوال القرون الأولى من تاريخها إلاّ أبناؤها وأحياناً حلفاؤها. والواقع أنها لم تخُض أيّة حرب بعيدة في هذه الفترة.

ونظم الماغونيون الامبراطورية في القرن الخامس قبل المسيح وأسّسوا جيشاً يلائم حاجة قرطاج في التوسّع فجمعوا المرتزقة وجنّدوا الرجال في الأراضي التي ضمّوها إليهم. ويصعب علينا أن نحدّد ولو بشيء من الدقّة أهميّة هذا الجيش، فالأرقام التي أوردها المؤلفون القدماء تحتوي على اختلافات كبيرة.

ولم ينقطع القرطاجيون عن إدخال أبنائهم في الجيش فقد تأسّست فرقة للخيّالة تضمّ بخاصة شباب المدينة الارستقراطيين، فأبدت شجاعة فائقة وأُبيدت بكاملها عدّة مرّات.

ولم يتجاوز عدد جيش قرطاج المئة ألف رجل إلا أحياناً نادرة، وهو لم يكن نظامياً، ولهذا ظلّ ينقصه التمرين.

واعتاد مجلس الشيوخ ان يعالج المشاكل الخارجية بالاتفاق الدبلوماسي والتنازل المالي. ولم يدعُ الى إستعمال القوة العسكرية إلا مرغمًا. من هنا الضعف في تدريب الجند وقلّة النجاح العسكري منذ القرن الرابع قبل المسيح، رغم غنى الخزينة وشهرة القواد العسكريين

الذين لم يبدِ مجلس الشيوخ نحوهم سوى كثير من الحذر.

١ – **المشاة** – يحارب الجزء الأكبر من المواطنين والمرتزقة في صفوف هذه الفرقة ويحمل المشاة سلاحاً ثقيلاً وبمسكون بسيف أو رمح قصيرين . ويُسلّح بعضهم بحراب أو بمقاليع يرشقون بواسطتها كرات من الفخار المشوي.

٢ – **الخيّالة**. – ويضمّ قسم صغير منها شباب الاشراف وأما القسم الأكبر فقد تكوّن منذ القرن الرابع قبل المسيح من الفرسان النوميديين الذين يمتطون أحصنتهم الصغيرة المعروفة بسرعة جريها وبتحمّلها للتعب. فهذه الأحصنة المنقادة القنوعة التي لا تبالي بالعناء كانت تنهك العدوّ بهجماتها المتكرّرة وتتشتّت عند الالتحام.

ويبدو ان الخيالة لم تلعب حتى القرن الثالث قبل المسيح إلا دوراً هزيلاً جداً. وهنّيبعل هو الذي جعلها تأخذ دوراً حاسماً في المعارك فقد عزّزها بالأعداد الكبيرة فبلغت في الجيش الذي قاده أثناء حملة إيطالية ، ربع عدد القوات الإجمالي.

٣ – **العربات**. – استعملت العربات حتى القرن الثالث قبل المسيح ، ثمّ حلّت محلها الفيلة التي بلغ عددها في المعركة الواحدة حوالي المئة في كل صفّ. وكان يقودها سائس ويتبعها جنود يعملون على تهييجها بوخزها بأطراف الحراب وبقرع الأجراس حتى تنقضّ على صفوف العدوّ فتحطّم مقدّمته وتزرع الرعب فيه وتدوس جنده فتمكّن

المشاة من أن يكملوا سحقه.

٤ – المدفعية. – وتتألف من معدّات الحصار التي تضمّ أبراجاً من عدّة طبقات ومجانيق وعرّادات وقذّافات تقذف كرات من الحجر أو الحديد.

وبرع الفينيقيون والقرطاجيون في هذا النوع من السلاح بفضل مهارتهم وعقلهم الخلاّق. وقد لجأ الصوريون الى جميع وسائل المدفعية فأحبطوا محاولات الاسكندر الكبير مدّة شهور طويلة.

واستولى جيش قرطاج على اسبانية، وحقّق نجاحاً في محاربة اليونان، ومكّن من تنظيم الامبراطورية، وجعل رومة ترتجف رغم اختلاف أوطان المحاربين في صفوفه ورغم وجود المرتزقة الذين لم يُدفع لهم كما يجب.

وتحلّى القوّاد الذين اختارهم الشعب بالشجاعة وكانوا غالباً بارعين لا بل عباقرة أحياناً. وقد أبدى هملقار وهنّيبعل للعالم، من خلال شهادات اعدائهما، ذكاء وحنكة استراتيجية فذاعت شهرتهما.

ودام حصار قرطاج وسقوطها ثلاث سنوات أظهر القرطاجيون خلالها طولة وجرأة مدنية وعسكرية.

٤ – البحرية

لا ريب أن البحرية الفينيقية هي أشهر وأقدم بحرية في العصور الغابرة.

ومنذ الالف الثالث قبل المسيح أخذ المصريون يقصدون الى سوريا ولبنان ليأتوا بخشب الأرز الذي يحتاجون إليه في بناء السفن المسمّاة «كبنت» على اسم المدينة الفينيقية «كبن» أو جبيل. وتتصف هذه السفن الجبيلية بالمميزات الأساسية للمركب الفينيقي، فهي زوارق كبيرة ذات طرفين مرتفعين، ومجهّزة بدرابزون متحرّك على الارجح، وهي تسيّر بواسطة الأشرعة أو المجاذيف. ولقد جعل داخلها واسعاً لتنقّل الحمولة الكبيرة. ويشتمل تجهيزها الذي اطلعنا عليه من خلال الرسوم المصرية، على سارية مزوّدة بعارضة وبأربعة أشرعة مربّعة معلّقة بحبال. وهناك سلالم تساعد في الوصول الى مختلف اجزاء السارية. وتتألف الدفّة من مجذافين كبيرين مثبّتين في المؤخرة. ويلاحظ ان هذه الزوارق الكبيرة والمستديرة هي جدود «للماهون» الذي ما زال يستعمل في الشرق المتوسطي.

وأما المراكب الخاصة بالحرب فتختلف في هيئتها: فمؤخرتها مرتفعة بينا تنتهي مقدّمتها بنتوء يلامس سطح الماء ويحطّم مراكب الأعداء إذا ما توفّرت له قيادة ماهرة. وتسيّر المراكب الحربية بواسطة صفّين أو ثلاثة صفوف من المجذّفين.

وورثت قرطاج بحرية صور، فلاقت الشهرة نفسها ولا يعود الفضل في ذلك لقوّة مراكبها وحسب، بل أيضاً لخبرة بحّارتها الذين لم يعرفوا البوصلة وإنما كانوا يهتدون بكوكب الدبّ الأكبر.

وعرفت في صور مراكب «تارسيس» التي بلغتنا شهرتها من خلال التوراة والاهتمام الذي أولاها إياه الملك سليمان. وهي تعتبر جدوداً للمراكب التجارية التي كانت قرطاج تملك الألوف منها كما يملكها مجهّزوها أو بحّارتها. ولقد استخدمت مع رجالها لنقل الجيوش القرطاجية والمعدّات وغيرها عند نشوب الحرب لأن البحرية الرسمية غير كافية في قرطاج. وتحمي هذه البحرية الرسمية في زمن السلم منافذ الأقاليم الخاضعة لنفوذ قرطاج التجاري من القراصنة وتحرس القوافل البحرية وتهاجم في زمن الحرب أساطيل العدوّ. ولقد عُوّل عليها في محاربة اليونان في القرن الخامس قبل المسيح، كما أخذت في القرون الوسطى تفرغ حمولتها في سيراقوزة. وتجدر الاشارة الى أن الجزء الاكبر من الحرب الفونية الاولى قد دار في البحر. ولا يخفى علينا ان الرومان عندما قرّروا بناء اسطول حربي قلّدوا اسطول قرطاج.

وراوح مجموع قوات الاسطول القرطاجي الرسمي بين مئة ومئتي سفينة. وفي غضون الحرب الفونية الثانية، لم يتجاوز عدد السفن القرطاجية التي اشتركت في المعركة المئة. ولم تحتفظ المدينة عند الاتفاق على عقد الصلح بسوى عشرة مراكب ذات ثلاثة مجاذيف وأحرقت سائر مراكبها في البحر على مسافة قريبة من شواطئها. وبعد أن انهزمت لم تُخلف باتفاقاتها، وكانت مجرّدة من السلاح تقريباً عندما حاصرها «سيبيون».

وفي سنة ١٤٧ قبل الميلاد أعاد القرطاجيون بناء أسطول من خمسين مركباً ضخماً والرومان عند أسوار مدينتهم.وحاول هذا الاسطول الذي وضع فيه أبناء المدينة كل آمالهم أن يُغير للمرّة الأخيرة ولكن محاولته باءت بالفشل.

كل ما نعلم عن مصانع السفن في قرطاج هو أنها ضخمة وقائمة داخل المرفأين ويحميها سور. ولا غرو ان العمال والحرفيين الذين كانوا يشتغلون فيها هم من أفضل العمال والحرفيين في القديم لأنهم يملكون خبرة واسعة. وقد ظلّ الفينيقيون وخاصة سكان جبيل وصور يصنعون كل أساطيل العهود القديمة منذ أبعد مرحلة تاريخية حتى غزو الاسكندر.

وتشير التوراة الى ان سليمان رغب في أن ينشىء أسطولاً في البحر الأحمر. فطلب الى الصوريين ان يبنوه له. كما بنوا أيضاً أسطول سنحاريب ملك أشور في القرن السابع قبل المسيح، واسطول فرعون ينشاو.

واحتفظ أسطول صور بكل نفوذه بالرغم من نبوءات حزقيال حتى استولى الاسكندر على المدينة.

وتجمع الشهادات في كل العصور الماضية على أن اسطولا صور وقرطاج هما من أشهر أساطيل العالم القديم. وأسطع برهان عن تفوّق قرطاج في البحر هو «الرحلات البحرية». ونطلق هذه التسمية على

اكتشافين أشرفت عليهما الحكومة الفونية وأوصل إلينا المؤلفون اليونان جزءاً من أخبارهما. ويرجع تاريخ هاتين الرحلتين الى مطلع القرن الرابع قبل المسيح.

وكان لا بدّ لنا ان ننتظر خمسة عشر قرناً حتى أتى الرحّالة البرتغاليون وفاسكو دي غاما فقاموا بالرحلات البحرية الكبيرة وعمدوا الى اكتشاف حدود العالم.

١ – رحلة حملكون البحرية. – لقد سرد هذا القرطاجي عن رحلته رواية لم تصل إلينا ولكن اطّلع عليها بعد عدّة قرون من ذلك شاعر لاتيني وأشار إليها في بعض أشعاره.

فبعد أن انطلق حملكون من قرطاج، قصد الى قادس الواقعة على مسافة قريبة من مضيق جبل طارق. ومن هناك التفّ حول شواطئ اسبانية مبحراً نحو الشمال، ثم أوغل في المحيط مغامراً والتقى بأرصفة من الطحلب والرمل وبضباب كثيف، ووصل بعد صعوبات كثيرة الى «بروتانية» و«كورنواي» وربما إلى ايرلندا. وهدفت هذه الرحلة الرسمية الى إنعاش أسواق الرصاص والقصدير التي ساعدت القرطاجيين الذين يستولون على مناجم الفضّة في اسبانية على احتكار جميع موارد المعادن الثمينة تقريباً في العالم الغربي.

٢ – رحلة حنون البحرية. – لخّص قصة هذه الرحلة البحرية الطويلة مشجّع حنّون ووُجدت محفورة على البرونز في معبد بعل حمّون

في قرطاج. ووصلت إلينا ترجمة يونانية لها غير ان قصر هذه القصه والنقص الذي يشوبها، وما ورد فيها من أسماء يستحيل علينا ان نتحقّق منها وان نعيّن أصحابها كل هذا - يجعل تفسيرها أمراً صعباً. ورغم ذلك يمكن ان نستخلص منها ان الملك الذي يُعتبر رجل قرطاج الأول، ويحمل اسم حنون وينتمي الى أسرة الماغونيين نظم في نهاية القرن الخامس قبل المسيح رحلة واسعة لها هدفان: تأسيس عدد من المستعمرات وتعزيز سوق الذهب.

انطلق حنون بصحبة ستين سفينة تنقل عدداً كبيراً من المسافرين من الرجال والنساء الذين ذهبوا في هذه الرحلة إما قسراً وإما يحدوهم الوعد ببعض المنافع، وهذا السبب الأخير أقرب الى الواقع.

وعلى الأرجح خضعت الأماكن التي وطئها حنون مع أصحابه منذ زمن طويل لنفوذ قرطاج الاقتصادي.

وفي أول جزء من الرحلة ،بلغت البعثة رأس« سولويس » الذي يقال له حالياً رأس «كانتان» ، وشيَّد حنّون هناك مذبحاً أثار بعد ذلك بمئة سنة إعجاب البحّارة وجذب إليه من حين الى آخر عبّاد سيّد البحر، الاله «بوزيدون». ولا شك ان المهاجرين الفينيقيين المستوطنين هذا الموضع قد ساعدوا حنّون على عمله قبل أن يشملهم بحمايته الرسمية. وبعد هذه الرحلة الاستطلاعية على الساحل المغربي، توقّف في سبعة مراكز زراعية أو مدنية اختارها ليقيم فيها مستوطنين جدداً من الذين

رافقوه في سفره.

وقبل رحلة حنّون بعدّة قرون امتدّت رقابة المستوطنين الفينيقيين الى المغرب القديم، وتوطّدت بعد ذلك بفضل القرطاجيين الجدد الذين استقرّوا فيه.

ومن المؤكد ان سكان لكسوس أيّدوا هذا التنظيم الجديد للحماية الفونية كما حرصوا على التهيئة لها، فكانت زيارة حنّون تدشيناً رسمياً لمركز قد شيّدوا القسم الاكبر منه.

وفي لكسوس، أعدّ حنّون للجزء الثاني من رحلته يعاونه مستوطنون فينيقيون قد خبروا طرق افريقية البحرية. وعوّل حنّون على هؤلاء للتأكّد من وجهة سيره. وما لبث أن يمّم شطر «سرنيه» وهي جزيرة صغيرة تقع حسب زعم بعضهم في خليج «ريو دي أورو» وتبعد أكثر الى الجنوب كما يدّعي أناس آخرون. وأنزل في هذه الجزيرة بعض الفينيقيين الذين انصرفوا الى مساعدة اللكسوسيين على تنظيم تجارتهم ومراقبتها. ثم انحدر حتى مصبّ نهر السنغال ومرّ بمواقع المستوطنين الفينيقيين الذين كانوا يتاجرون مع العبيد المنقّبين عن الذهب في «بامبوك»، ثم صعد الى «سرنيه» وشرع في رحلة طويلة أفضت به الى داخل خليج غينية.

وحمل حنون واصحابه معهم بعد هذا الجزء الأخير من رحلتهم ذكريات تثير الفضول. ومن هذه الذكريات طبلة التام تام التي يستعملها العبيد على الساحل، وفيضان الكاميرون، وصيد الغورلاّ

وغيرها. وعُلّق بمعبد تانيت في قرطاج جلد امرأتين قزمتين بمثابة غنيمتين. ووُضع في معبد بعل حنون لوحة برونزية حُفرت عليها رواية الرحلة.

وانتشرت هذه الرواية في القديم غير ان الحقائق التي أوضحتها لم يُستفد منها. أما الشعراء فقد رأوا هذه الأرض البعيدة والغريبة وطناً للوحوش والآلهة فأفادت الرحلة الميتولوجية أكثر مما أفادت الجغرافية.

وطاف القرطاجيون في بلاد أخرى ومنها خاصة جزيرة «ماديرا» وجزر الكناري. وبعد سقوط قرطاج ظل سكان لكسوس وقادس يرسون في هذه المناطق والمراكز التجارية البعيدة. ولكن بعد ان خرجت من حماية قرطاج وتنظيمها التجاري أقلعوا عن ذلك لأن الرومان أخذوا يضايقونهم.

ويختلف مفهوم الرومان للإستعمار عن مفهوم قرطاج. فهذه الأخيرة كانت تسعى قبل كل شيء الى انفاق بضائعها، فلذلك حاولت ان ترفع مستوى المعيشة لدى رعايا المستعمرات وأن تولّد عندهم حاجات جديدة وأن تغنيهم. وهي لم تعتبر هؤلاء كعبيد عصاة وإنما كزبائن. والحقيقة ان قرطاج لم تحتفظ لنفسها بمستعمرات بل بمناطق نفوذ اقتصادي.

ملاحظة. - تُرجمت قصّة رحلة حنّون وعلّق عليها «جزل» في مؤلفه «تاريخ افريقية الشمالية القديم» في المجلّد الاول. وساد الاعتقاد بأنه يستحيل ان تترجم ترجمة جديدة، بيد أن «كركوبينو» قد أنجز

ذلك في كتابه «المغرب القديم» الذي طبع في باريس وصدر عن دار غاليمار للنشر سنة ١٩٤٨ . ومن هذا الكتاب استقينا جزءاً كبيراً من هذا المقطع .

٥ – الزراعة

اهتمّ القرطاجيون بالزراعة ، والكاتب الفوني الوحيد الذي بلغنا جزء من مؤلفه هو ماغون الذي لقي كتابه «دراسة في علم الزراعة» شهرة كبيرة .

وشجّع القرطاجيون الزراعة وعنوا بها فنمت المزروعات على السواحل التي تكوّن تونس الحالية ، وأثارت اعجاب الرومان عندما وطئوا أرض افريقية .

وأَفْضَلَ القرطاجيون جزئياً على سكان تونس الاصليين بالزراعات التي قامت عليها ثروة التونسيين والتي ما زالت تمدّهم بخيراتها : كزراعة الخضار والأشجار المثمرة ، كالرمّان والتين والزيتون وخصوصاً الكرمة . وقد اشتهرت خمور قرطاج في القديم ولاسيّما خمرة العنب المجفّف التي صُدِّرت مع زيت الزيتون .

وزرع سكّان البلاد الأصليين المحاصيل بوفرة . وفي الحقبة الرومانية اصبحت منطقة أفريقية أهراء لرومة واستخدم اسطول قرطاج الجديدة في نقل القمح من افريقية الى رومة . وغالباً ما رسمت على الالواح النقوشية الفونية المحاريث والسنابل وغيرها كما اكتشفت

في الريف أهراء تدلّ على أن أهمّ الزراعات في تونس ترجع الى المرحلة الفونية.

٦ – تربية المواشي

انتشرت تربية المواشي في أملاك الأسر الغنيّة في ضواحي المدينة. وكان يربّى الحمار والبغل والأحصنة والبقر وخاصة الغنم ذا الأذيال القصيرة الذي يرجع الى أصل مغربي ويكثر في أيامنا أيضاً في قلب تونس.

٧ – صيد السمك

كانت الاسماك المتكاثرة في خليج تونس تفي بالجزء الأكبر من مؤونة قرطاج. وأما الفائض على الاستهلاك المحلّي منها فيعمد الى تقديده. وأنشأ الفونيون لهذه الغاية مَصاداً ومستودعاً للأسماك المقدّدة في مناطق خاضعة لرقابتهم وبالتحديد داخل خليج « سيرت » وفي «جربة» وعلى سواحل اسبانية.

وما لبث أول المستوطنين الصوريّي الأصل الذين استقروا على سواحل تونس ان اكتشفوا الصدف المدعو بالموركس واستعملوا قسماً منه في صنع صبغة الارجوان التي عرفت رواجاً كبيراً في القديم. واستغلّ الصوريون والصيدونيون مواضع صيد الموركس ومراكز تصنيعه التي امتدّت على الساحل الفينيقي.

٨ – التجارة

تعدّ التجارة بالنسبة الى قرطاجة مورد رزق رئيسي تنهل منه القوة التي أتاحت لها إنشاء امبراطوريتها كما تعتبر بالنسبة الى القرطاجيين وسيلة وغاية، فيها تمكّنت المدينة من نشر الحضارة في المغرب والاستيطان في اسبانية والنهوض والمقاومة بعد الحرب الفونية الثانية.

وبنت قرطاج مرفأيها وأسطولها ولجأت الى نظام سياسي واقتصادي يوافق تنظيمها التجاري الذي أصبح المفتاح السحري للحضارة القرطاجية.

ولا ريب ان هذا التنظيم المرتكز على مبدأ الانتاج والتبادل حقّق لقرطاج نجاحاً مادياً ومعنوياً. ولم تنقطع رومة عن الغزو لتوفير معاشها واعتمدت على فرض الضرائب وعلى المرابين بسبب فقدان الانتاج لديها تقريباً بينما راحت قرطاج تنتج وتبيع وتقايض. ولم تبلغ حاجاتها يوماً مقدار ما بلغته صادراتها ولم يعرف ميزانها التجاري العجز أبداً. وأما زبائنها فقد شملوا العالم المتحضّر، وعندما تضاءل هذا العالم بالنسبة الى حجم تجارتها شرعت تبحث في افريقية واسبانية عن منافذ جديدة لتصريف بضائعها وعن مصادر جديدة للمواد الأوّليّة.

وتصدّر قرطاج الخمر والحبوب وزيت الزيتون واللحوم المقدّدة والأرجوان. واستخدم تجارها وملاحوها هذه البضائع كعملة في التبادل التجاري وتألفت أغلب حمولة سفنهم المصدّرة من

المنتوجات المصنّعة.

ومن هذه المنتوجات خاصّة الأثاث، فقد انتشرت في العالم القديم طرق النجارين الفونيين في وصل الخشب وفي نجره. وحملت هذه الطرق في اللغة الرومانية نفسها أسماء مخترعيها. ومن أهمّ الصادرات الفونية أصناف الخزف العادي، والتمائم، والأنسجة المطرّزة والبسط والطيوب والحلى والآنية الثمينة والمعادن الخام. ويعتقد أن الحرفيين الذين أمدّوا الاقتصاد الفوني بانتاجهم قد لقوا الحماية والرعاية الفائقة وتمتّعوا بمستوى معيشة مرتفع.

وانتشر القرطاجيون في جميع المرافئ كوسطاء في المقايضات التجارية الكثيرة وكان لهم مراسلون في أطراف العالم المعلوم. ولذا قد لا يكفي انتاج قرطاج ومستوطناتها لتفسير غناها الاسطوري الذي تكلّم عنه جميع المؤرخين القدماء.

ويرجع جزء من موارد قرطاج الى غنى مواطنيها لأن هذه المدينة لم تعمد الى تأميم التجارة والزراعة. وأما الجزء الآخر من هذه الموارد التي تصبّ بصورة رئيسية في خزينة الدولة فهو وليد استثمار مناجم الفضّة في اسبانية، ومناجم القصدير في «كورنواي» ومناجم الذهب في «بامبوك». وكانت الضرائب نادرة في قرطاج، ولكن الرسوم الجمركية التي فرضت على المراكب الكثيرة، الراسية في المرافئ تحت الرقابة الفونية، أسهمت أيضاً في الحفاظ على غنى المدينة.

الفصل السابع

الفنون والحرف

١ – الهندسة المعمارية

نكاد نجهل كل شيء عن الهندسة المعمارية في قرطاج بالرغم من إسهاب المؤلفين القدماء وخاصة «أبيان» في وصف المدينة ويعود السبب في ذلك الى عدم دقّة هذا الوصف.

ولا يخفى علينا ان الأبنية الرسمية كانت جديرة بشهرة الجمهورية وغناها فقد كُسيت بعض الهياكل بصفائح من الذهب. ولم تبرز أعمال التنقيب إلا حقائق هزيلة جداً تستلزم إجهاد المخيّلة لتمثّل هيئة المباني القرطاجية التي اندثرت معالمها في أغلب الأحيان.

ويبقى زخرف الألواح النقوشية الفونية المصدر الاكبر الذي نستقي منه المعلومات، عدا بعض بقايا الأعمدة وبعض قطع الجصّ المدهون.

ويبدو ان طريقة البناء عند القرطاجيين لا تختلف عمّا هي عند الفينيقيين الذين عُرفوا بهندستهم المعمارية وببعض مبانيهم الشهيرة فقد

عهد الملك سليمان الى أحيرام أحد ملوك صور بتشييد هيكل أورشليم.

وتتباين طرق البناء لدى القرطاجيين حسب الاستعمال الذي يُعَدّ له المبنى، فالأسوار والجدر الساندة وأرصفة الشواطئ وكل الأبنية المعرّضة للهجمات. القويّة أو للأثقال الكبيرة تتكوّن من حجارة ضخمة مربّعة الزوايا، قد رُصفت بانتظام بعضها فوق بعض دون ملاط. وقد يستعمل كل من هذه الحجارة لصق حجرين متشابهين أصغر حجماً فيضغط عليهما. ونجد مثل هذه الأبنية المشيّدة بالحجر الضخم في صور وصقلية وعند شاطئ قرطاج وفي جزيرة الإمارة.

ويختلف هذا النمط البنياني عن النمط المُعتَمد في الجدر الفونية التي كُشف عنها في تلّة بيرسا، فهذه الجدر تتألّف من قطع ضخمة مربّعة الزوايا تتصل فيما بينها برصيف من الحجارة الصغيرة أو من الحصى المجبولة مع الاسمنت حتى يُخفّف من ثقل البناء. ويُعتقد بأن الرومان قد استعملوا الطين واسموه بالاسمنت الفوني، وهو خليط من التراب والكلس يُستخدم في الأبنية الريفيّة. ومع أن الفينيقيين قد فضّلوا المباني ذات الجدران الضخمة الحجارة فإنهم عرفوا أيضاً طريقة بناء الجدر والقباب من رصف الحجارة الصغيرة والباطون. وينسب «بلين» إليهم عدداً كبيراً من الحصون التي رآها في عصره في اسبانية والتي تتكوّن أسسها من كتل الباطون والطين كما تكوّنت أسس

مرفقاً صور خاصة من الباطون الصلب.

أما الحجر المستعمل غالباً في البنيان في قرطاج فهو خشن الملمس سهل التأكّل فلذا غُطّيت أكثر المباني بطلاء من الجصّ وزُيّنت بزخارف مدهونة ومنحوتة.

عناصر الزخرفة. – إن نمط الزخرفة المعمارية هو خليط بصورة أساسية أي مستوحى من طرائق زخرفية متنوّعة.

فالأعمدة التي وصل إلينا عدد كبير منها هي دائماً مقنّاة وتتألف من الحجارة المنحوتة والمجصّصة أو من أنابيب من الفخّار المشوي التي تشبه الميازيب الفخّاريّة الحالية وتحتوي في داخلها على قليل من الحجارة المرصوفة وتُطلَى بطبقة كثيفة من الجصّ المقنّى والمدهون بعدّة ألوان.

وعُثر في قرطاج على تيجان أعمدة. وتتدرج هذه التيجان جميعاً في نمط خليط فالبعض منها يضمّ عناصر زخرفية مصرية كالنّيلُوفر، منسّقة الى جانب عناصر قبرصية مثل السُعيفة. ويتأثر البعض الآخر بالنمط الايوني المعروف في اليونان الآسيوي. ولقد لاقت تيجان هذا النوع الثاني رواجاً أكبر، وهي تتألف من زخرفين حلزونيّي الشكل يتقابلان في أعلى العمود المقنّى. ويبرز من الزاوية السفلى للزخرف الحلزوني زهرة أو برعم.

وكُشف في مذبح سلمبو عن عدد كبير من النصب تقوم عند

النواويس وبَنَتاً عليها عمودان مستطيلان يخلوان من الزخرفة في أغلب الأحيان وسندان حرفاً تزيّنه قناة من نمط مصري . ولقد أخذ الفينيقيون هذا النوع من الأعمدة المستطيلة الناتئة عن المصريين واستعملوه في جميع البلدان التي حلّوا فيها . ونجد أحياناً قرصاً مجنّحاً أو صفاً من الأصلال المنتصبة عوض هذه القناة التي تتقعّر على شكل ربع دائرة وتلتوي الى فوق ويعلوها شريط مسطّح . وفي القرن الرابع قبل المسيح بُدّلت هذه العناصر المنقولة عن المصريين بزخارف مقتبسة عن الفن المعماري اليوناني كالافريز المزيّن بأشكال بيضاوية وكروية ، وبأخاديد ثلاثية وبأغصان ملتوية كما يُزيّن هذا الإفريز أيضاً بعض العناصر الشرقية التي تشبه الوردة أو النجمة وترافق عادة العناصر السابقة .

وتبدو مختلف عناصر الزخرفة القرطاجية غنيّة بأشكالها وألوانها ولكن تفتقر الى الاصالة .

٢ — المباني الجنائزية

في القرن السابع اتخذ القبر هيئة بيت حقيقي تحت الأرض . فقد بُنيت الحُجَرُ المعدّة للدفن بالحجارة الجميلة وغُطّيت بسقف من البلاط المرصوف بشكل مسنّم . وكانت أحياناً هذه الحُجر تحفر مباشرة في الصخر . في قعر بئر يراوح عمقه بين خمسة وسبعة أمتار.

وفي القرن الرابع والثالث قبل المسيح ازداد عمق هذه الآبار فبلغ

أحياناً عشرين متراً. ويؤدّي كل بئر عادة الى حُجرتين أو ثلاث تقع الواحدة منها فوق الأخرى، وتوضع الأجساد في داخلها على مقعد أو في ناووس بعد أن تلفّ بكفن. أو تُمدّد في نعش مدهون باللون الأحمر. ولم تحفظ هذه النعوش الخشبية في قرطاج ولم يخلص إلينا سوى زخرفاتها الحديدية ومقابضها وبعض القطع منها. ويرقد الميّت بصورة استثنائية في ناووس من الحجر او من الرخام الملوّن والمنحوت وقد يدفن مع جواهره وبعض الآنية الفخارية التي تحتوي على أطعمة جامدة وسائلة، ومع مصباح وأباريق وأدوات زينة.

ويبدو أن عادة حرق الأموات وحفظ رمادهم في وعاء داخل القبور قد سادت منذ القرن الرابع قبل المسيح، ولكن من الواضح أن تكفين الأجساد وحرقها عرفا في قرطاج كما عُرفا في «موتيّا». ويدفن الأولاد عادة في جرار واسعة من الفخار المشوي. ولم يحرق إلا الأطفال المضحّى بهم، فحفظ رمادهم داخل جرار في مذبح سلمبو. واكتشفت على وجه الأرض مدافن كثيرة لم تكن تحوي سوى جسم أو جسمين وأثاث صغير. وتنسب هذه المدافن الى قرطاجيين متوسطي الحال أما افراد الطبقة الدنيا من الشعب فيقبرون في حفر عامة واسعة؛ ولقد ضمّت إحدى هذه الحفر التي نُبشت في الجنوب الغربي من تلّة بيرسا، مئات من الجثث.

واكتشفت بضع مئات من الالواح النقوشية الجنائزية تصوّر

الميت من ناحية الوجه وهو في وضع الصلاة فاتحاً كفّيه وماداً راحتيه الى الأمام. ولا يمثّل اللوح سوى النصف الأعلى من الجسم ضمن مشكاة مستطيلة. ويظهر في أعلى هذا اللوح الذي تثبّت قاعدته فوق القبر بواسطة الطين زخرف مثلّث. وانتشر استعمال هذه الألواح الجنائزية الصغيرة منذ القرن الرابع قبل المسيح حتى نهاية الحقبة الرومانية. ويمكن ان نفرض بأن آثاراً عظيمة كانت تنتصب فوق قبور الأسر القرطاجية الغنيّة. ومع ذلك، لم يبلغنا أي ضريح شبيه بالضريح الفوني الشهير، ضريح «دوغّا».

وتعرّضت النواويس مثل كل الآثار القرطاجية التي تظهر فيها نزعة الى التصنّع والتفنّن للتأثيرات المصرية واليونانية.

ويتخذ الناووس الحجري في بعض الأحيان هيئة مومياء كما في مصر فيأتي الغطاء على شكل جسم بشري قد تقلّص فيه حجم الرأس واليدين والرجلين. ويتأثر صنع هذا الناووس أحياناً أخرى بالفن المعماري اليوناني فيتخذ شكلاً مستطيلاً ويظهر غطاؤه مسنّماً ويؤلّف طرفاه الصغيران مثلّثين مزخرفين تلتصق بزواياهما قواعد مزيّنة.

واستخرج من مدفن «سانت مونيك» في قرطاج ناووسان يرجع عهدهما الى القرن الرابع قبل المسيح ويبدوان من نمط مختلف ويتّصفان بجمال حقيقي ويُعرضان في متحف «لافيجري». وبلمت

أحدهما النظرَ أكثر من الآخر لأنه يصوّر في نقش ناتئ مستدير امراة ممدّدة على الغطاء ترتدي ثوباً كهنوتياً ويغطّي رأسها الصغير الذي يخلو جماله من صبغة شخصية متميّزة حجاب ذو أطراف مزيّنة بصفّ من الشراريب. ويكسو هذه المرأة غلالة كتّانية مَثْنِيَّة عند ثديها الأيمن. ويلتقي عند ركبتيها جناحان طويلان مطويّان وتمسك بيدها اليمنى حمامة وبيدها اليسرى علبة حلي ويتوهّج الناووس بكامله بالألوان الفاقعة.

وأما الناووس الآخر فيزيّنه نقشُ رجل راقد يلبس ثوباً طويلاً ويتدلّى وشاح من على كتفه الأيسر. وقد أرخى هذا الرجل لحيته وأطال شعره، وبدت أسارير وجهه معبّرة. فلا ريب أنه كاهن إذ يحمل في يده اليسرى مجمرة بخور ويرفع يده اليُمنى إشارة إلى أنه يصلّي.

وهناك ناووس آخر: جدير بالاهتمام ترتسم على غطائه صورة امرأة محجّبة في نقش ناتئ مستدير.

وعُثر على وعاءين صغيرين يعلوهما غطاءان مزيّنان قد حفرت على أحدهما صورة كاهن وعلى الآخر تظهر صورة شخص في نقش ناتئ.

٣ – النحت

انتشر فنّ نحت التماثيل في قرطاج ولكن التحف القيمة قد بيعت

أو حُطِّمت أو نهبت عند الحصار. ونعلم أن «سيبيون إميليان» المنتصر حمل معه الى رومة عدداً كبيراً منها ، كما نعلم ان القرطاجيين كانوا قد سلبوا المنحوتات من مدن صقلية ، ومن هذه المدن أغريجنت وسجست. ويعتقد بأن الآثار الفنيّة قد كثرت في قرطاج إذ عمل فيها كثير من الفنّانين الذين هم في أغلب الأحيان يونانيو الأصل. ولم يصل إلينا من أسماء النحّاتين سوى اسم «بوبثوس» القرطاجي.

وأما التمثالان الوحيدان الباقيان من الحقبة الفونية ومن الفن الفوني فقلّما يظهر فيهما الابتكار، فهما يمثّلان رجلين يصلّيان ويتكوّنان من عمودين اسطوانيّين مسطّحين قليلاً من الجانب الرئيسي ولا يبرز فيهما من الحجر غير الرأس والرجلين. ويتّسم الوجه بمسحة من الذكورة ويكاد يخلو من أي تعبير. وأما الأنف فمستقيم والشعر مجعّد قليلاً. ولا يمكن ان نحكم من خلال هذين التمثالين على أهميّة الفنّ الفوني في نحت التماثيل.

٤ – الأنصاب الجنائزية والألواح النقوشية

تعتبر الألواح النقوشية من أوسع آثار الحقبة الفونية انتشاراً إذا ما استثنينا المصنوعات الخزفية.

فلقد أحصي منها حالياً أكثر من خمسة آلاف. وعلينا أن نميّز بينها وبين الأنصاب الجنائزية الصغيرة التي تشبهها. وليست هذه الأنصاب في الحقيقة سوى نذور تهدى الى الآلهة بمناسبة تقديم

ذبيحة بشرية ، وتوضع بقايا الذبيحة داخل جرّة تدفن تحت النصب الذي يحمل أغلب الأحيان نقشاً إهدائياً موجّهاً الى الإلهة تانيت والإله بعل حمّون.

ومنذ تأسيس قرطاج حتى الحقبة الرومانية ، أي منذ القرن التاسع حتى القرن الثاني قبل المسيح ، بقي الفونيون يستعملون مذبح قرطاج الذي يقع على بعد بضعة أمتار من غرب المرفأين ونعوّل على أعمال التنقيب المنظمة التي أنجزت فيه لنستقصي تاريخ الآثار من خلال تطوّر أشكالها وطرق استعمالها.

وتعلو طبقة من الحجارة الصغيرة أو من الحصى الدقيقة أقدم الجرار المطمورة في مذبح قرطاج والمحتوية على ضحايا الاولاد. وبعد ذلك بقليل أخذ يرتفع فوق التقادم حجارة منحوتة على شكل مسلاّت وأنصاب. وفي الوقت نفسه ، ظهرت الأنصاب الجنائزية المكوّنة من الكلس الذي يخالطه الصدف. وتبدو هذه الآثار مربّعة الزوايا تقريباً ، ويراوح طولها بين ثلاثين سنتمتراً ومئة وخمسين ويرجع تاريخ معظمها الى القرنين السابع والسادس قبل الميلاد ، ويظهر عليها زخرف ذو طابع مصري.

وتنقسم الأنصاب الجنائزية الى ثلاثة نماذج رئيسية تتميّز ببعض الفوارق.

وتتخذ «الأنصاب الناووسية» كما يدلّ اسمها هيئة كنيسة

صغيرة، ذات طابع مصري وهي مربّعة الزوايا تزيّن جانبها الرئيسي مشكاة مجوّفة يعلوها إفريز وكورينش مصري يسندها عمودان مستطيلان ناتئان قليلاً. ونرى داخل التجويف صورة إله أو حجراً مقدّساً أو مسلّة أو رسماً على شكل مومياء يَبين فوقه في أغلب الاحيان هلال.

وأما النموذج الثاني فهو «النصب المذبحي»، ويبلغ طوله متراً بل أكثر ويشتمل على تجويف توضع فيه الجرّة التي تحتوي على الذبيحة أو يُنصب ضمنه حجر ما زالت آثار ترسبخه في هذا التجويف بادية أحياناً. ويظهر ان هذا النوع من الأنصاب قد يوافقه بصورة أفضل اسم «النصب الساند».

وتتخذ أنصاب النموذج الثالث هيئة عرش إله. وهي قواعد مربّعة يرتفع جانبها الخلفي على شكل مسند يتصل بمرفقين. ويُلاحظ في وسطها تجويف معدّ ليرتكز فيه أسفل صورة الاله. وفي أغلب الأحيان تقوم في هذا التجويف مسلّة منحوتة من الكتلة الحجرية نفسها التي تتألف منها القاعدة.

كل هذه الأنصاب التي أحصي منها حالياً أكثر من ألف نصب تغطى غالباً بطلاء من الجصّ الملوّن. ولم يبق من ألوان هذه الانصاب عند نبشها من التربة إلا بعض الآثار، وهي تخلو جميعاً من النقش باستثناء ثلاثة منها اكتشف أولها في سلمبو أثناء أعمال

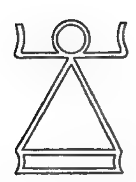
التنقيب التي قام بها الإميركيون سنة ١٩٢٣ وهو يحمل على ظهره نقوشاً ترجع الى حقبة متأخرة. وأما النصبان الآخران فقد عُثر عليهما سنة ١٩٤٦ في مذبح سلمبو في غضون أعمال التنقيب التي أنجزها «ستتاس». وهذان النصبان هما من نوع الأنصاب الناووسية. ويبرز على القسم السفلي من جانبهما الرئيسي النقش نفسه. ولقد بُتر جزء من هذا النقش من أحد النصبين. ولهذه النقوش أهمية مزدوجة إذ تساعدنا على ان نقابل بينها وبين النصوص الفينيقية فنرجع بذلك الى القرن السادس قبل المسيح الأنصاب التي كتبت عليها وهي تُعدّ من ناحية أخرى حتى ظهور اكتشافات جديدة، أقدم نصوص قرطاجية وتشير الى ذبيحة «مُلْك» مقدّمة لبعل فتؤكّد بذلك ان العظام المحروقة والراسبة في قعر مئات الجرار في المذبح إنما هي عظام أولاد مضحّى بهم لهذا الاله.

وتقصد هذه الانصاب مثل كل الآثار التي عقبتها الى الحفاظ على ذكر مهديها واعتبرت كذلك كمسكن للآلهة تجتذبها إليه الذبيحة القيّمة المقدّمة.

والى جانب هذه الأنصاب الجنائزية التي وصفناها نرى أحياناً الالواح النقوشية المسطحة والمقرّنة من أعلاها حيث يلتصق بها زخرفان. ومنذ القرن الرابع قبل المسيح، أخذ يظهر عليها نقش إهدائي أو زخرف محفور أو غالباً الاثنان معاً.

ويشتمل النقش فيها عادة على إهداء لتانيت وبعل حمون وعلى اسم المهدي وسلالته وأحياناً على إشارة الى مهنته أو مهنة أجداده.

ويبلغ طول اللوح العادي خمسين سنتمتراً وعرضه خمس عشرة سنتمتراً وكثافته ثماني سنتمترات. ولا تبرز الزخرفة إلا على صفحته الرئيسية ويبدو أعلاه مقرناً أو على شكل مثلث يتصل بطرفي قاعدته زخرفان. وتحت هذا المثلث إفريز يتألف من عناصر هندسية ويستند على عمودين ناتئين ومستطيلين من النمط الأيوني أو الخليط. ويظهر النقش بين هذين العمودين. وفي أسفل اللوح تزيين متنوع جداً، يحمل عادة مدلولاً رمزياً يزيد من قيمته. وتتصف أغلبية هذه الزينة بأهمية دينية يصعب إدراكها. وأكثر هذه الرموز وروداً تلك التي تسمّى «علامة تانيت». وهي تركيب هندسي يتألف من مثلث ودائرة يفصل بينهما شريط أفقي يرتكز الى قمة المثلث (انظر الرسم المقابل). ويوحي بحمل هذا الشكل بخيال شخص. ولا ريب أن القرطاجيين قد نسبوا إلى هذه العلامة في مرحلة متأخرة قيمة تجسيمية. ويعتقد بأن هذا الرمز قد نقل عن المصريين لشبهه بالصليب المصري المعقوف الذي يُعدّ أفضل رمز للحياة، لكن ذلك قليل الاحتمال، لأنه يوجد في قرطاج الى جانب علامة تانيت رسوم طبق الأصل عن الصليب المعقوف. ومن الواضح ان القرابة الشكلية بين هذين الرمزين لا شك فيها كما أنّ الفينيقيين والفونيين قد عرفوا علامة الحياة المصرية واستعملوها وربما قرنوا مدلولها الخيّر بمدلول علامة



تانيت. ولا يمكن ارجاع الفوارق الطفيفة التي تظهر بصورة مستمرّة بين العلامتين الى الصدفة.

وفي اعتقادنا أن علامة تانيت تتألف من حجر مقدّس يمثّل الميزة الأرضية لآلهة قرطاج الى جانب الميزة النجمية المتمثّلة في الشكل الدائري.

وتجسّد هذه العلامة الزوجين بعل وتانيت وترتسم على كل الآثار الدينية وعلى منتوجات الفونيين التجارية.

ومن الرموز التي ترد مراراً التمثال الذي يتخذ شكل قنّينة، والصولجان الذي يتألف من قضيب من الغار أو الزيتون ويحمل في أعلاه جناحين وتلتف حوله حيّتان، والقرص الذي يعلوه هلال والزخرف الذي يبدو على صورة نجمة مشعّة، وكوكب الزهرة. وأما عناصر الزينة التي استخلصت من عالم النبات فليست نادرة، فزهور

اللوتس والورق القلبي الشكل رمز الزمن، وتاج الورق، كلها زخارف تلمّح الى الاسطورة الديونيسية التي تكمن في الايمان بحياة أخرى طوباوية للولد المضحّى به، بينما تدلّ الرمّانة والغصون والسنابل الى مبدأ خصب الآلهة.

وتنقش الأضاحي الحيوانية غالباً في أسفل اللوح. ومن هذه الحيوانات الخراف والكباش والعصافير والثيران. ويظهر الى جانبها أدوات مع عدّة العبادة. ونجد أحياناً على اللوح صورة كاهن أمام المذبح وهو يقوم بخدمة الذبيحة. وتعرض إحدى النقوش المتقنة على اللوح رجلاً يرتدي ثوباً طويلاً من الكتّان الشفّاف ويحمل طفلاً على ذراعه، ويمثّل ذلكَ الكاهنَ قبل الشروع في خدمة الذبيحة. ونرى أيضاً امرأة تريق الخمر، وكهنة آخرين كما نرى بعض الصور الالهية المنحوتة في أعلى اللوح والتي يجسّد بعضها امرأة تمسك بهلال وولداً. ولا شكّ أن هذه المرأة هي الالهة تانيت.

وتكمل مجموعة هذه الرسوم القرطاجية نقوش تصوّر مراكب ومحاريث وبعض الأدوات والآنية.

٥ – الخزفيات

تعدّ معرفتنا لخزفيّات قرطاج كافية. وتعرض لنا ألوف الآثار المستخرجة من القبور والفاخورات ومذبح سلمبو صورة شبه كاملة عن هذه الصناعة.

ولا شكّ ان تصدير هذه المصنوعات قد ازدهر لأننا عثرنا على نماذج كثيرة منها في صقلية وسردينية واسبانية.

١ – **الآنية الفخارية الفونية.** – لم يحاول القرطاجيون ان يقلّدوا فيها الخزفيات اليونانية التي كتشف عن نماذج كثيرة منها في القبور. وبقيت الفخاريات في قرطاج من ضرورات الحياة اليومية وليس من أشياء الترف رغم قيمة بعضها. ولقد صنعت الآنية والأكواب والصحون والآجرّ التي تحفظ فيها عظام الضحايا من الفخّار الرمادي. أو الأحمر المستخرج من المقالع القائمة في قرطاج نفسها وعلى تلّة «البلفيدير» قرب تونس.

واكتشفت في المدينة فاخورات فونية، تشتمل على غرف تكدّست فيها المصنوعات المجهّزة، وعلى أخرى وُضعت فيها الانية المصوغة على مثال ما دون شيّ، وعلى فرن من القرميد النيء تتوسط ركيزة مدخنته الاسطوانية. وتحَطُّ في هذه المدخنة الأوعية المعدّة للشيّ والمصنوعة عادة من طينة جيّدة دقيقة حسنة الشيّ.

وفي مذبح سلمبو، في أعمق طبقات التراب التي يرجع عهدها الى القرن الثامن قبل المسيح، اكتشفت أقدم فخاريات قرطاج، وأما القبور التي تعود الى هذه المرحلة فلم يكشف عنها بعد. وتتخذ هذه الآنية الفخارية أشكالاً ثلاثة مختلفة. وأكثر هذه الأشكال استعمالاً القارورة البيضاوية والمسطّحة القعر والمزوّدة بعروتين صغيرتين

افقيتين تتعلّقان بأعلى بطنها. ولون فخار هذه القارورات أحمر، وطينتها دقيقة وحسنة الشيّ، مصقولة ومغطّاة بطلاء أحمر أو أسود. وتُرسم على بطن القارورة وعنقها خطوط أفقيّة، تربط بينها خطوط أخرى عمودية موزعة في مجموعات مؤلفة من ثلاثة أو أربعة خطوط. ويبعث هذا التزيين في الذهن صورة إفريز فيه زخرف من ثلاثة أخاديد يفصل بينها مسافات متساوية. وعُثر في «موتيَّة» في سردينية على آنية شبيهة بهذه القارورات يرجع عهدها عادة الى القرن الثامن قبل المسيح.

وأما الشكل الثاني فهو الإناء الصغير المستدير الذي تصل عنقه ببطنه عروة عمودية وهو مجرّد من التزيين لكنه مطليّ بدهان أبيض.

والشكل الأخير هو الوعاء الذي يسمّى «الوعاء الشوكي» لأنه شبيه بزهرة هذا النبات عندما تبرز من أصلها. ويكثر هذا النوع من الفخاريات في مذبح سلمبو ويتكوّن من طينة دقيقة وجميلة. حمراء قاتمة وتزيّنه في أعلى عنقه وأعلى بطنه خطوط ملوّنة. ويبدو عنقه طويلاً وواسعاً ويزداد وسعه في أعلاه. ويبلغ طول هذا الوعاء خمساً وعشرين سنتمتراً وقطره عشرين سنتمتراً. وقد نعثر بصورة استثنائية في أقدم مقابر «درماش» على بعض الآنية من هذه الأشكال الثلاثة التي أخذت تتطوّر منذ القرن السابع حتى الخامس قبل المسيح. وظهرت أنواع أخرى كالجرّة الإجاصيّة الشكل، المجهّزة في أعلاها

بعرى عمودية والمصنوعة بطريقة مبتكرة ، فاستمرّ استعمالها طويلاً في قرطاج . وانتشرت الجرار الدقيقة القعر المؤلفة من طينة كثيفة وخشنة الملمس . والى جانب هذه الخزفيات نرى الصحون الصغيرة التي تستخدم كأغطية ، والأباريق ذات العروة العريضة ، والآنية الصغيرة المجهّزة بعروة أو الخالية منها ، وبعض الصحون المسطّحة أو المجوّفة قليلاً التي تلتوي أطرافها نحو قاعدتها وهي مغطّاة بطلاء مصقول عادة .

ظلّ القرطاجيون يستعملون هذه الفخاريات طويلاً ، لكن الآنية الخزفية كلها تقريباً قد أتت منذ القرن الرابع قبل المسيح على نمط واحد واصبحت جراراً بيضاوية ، مسطّحة القعر رمادية اللون ، عراها واسعة وعمودية تصل البطن بالعنق . وتحتوي هذه الفخاريات كما في السابق على عظام الاولاد المحروقة أو عظام الحيوانات الصغيرة المقدّمة كذبائح للالهة تانيت وللاله بعل حمّون . ويرتفع عدد هذه الآنية المستخرجة من هذه الأمكنة المكرّسة للذبائح الكثيرة ، الى عشرات الألوف .

ويُضاف الى الفخاريات الجنائزية الآنية التي استخدمت في العبادة والتي صُوّرت نماذجها على الألواح النقوشية . وهي ليست في الواقع سوى كؤوس ذات عروتين وأباريق ذات بلبل نغليّ الشكل وأوعية للغَرْف . وكانت بعض هذه الأواني من الخزف وبعضها

الآخر من الذهب والفضّة.

وأما الفخاريات ذات الطابع النفعي كالأوعية وآنية السلطة والأكواب والصحون فقد كشف عنها في المدافن حيث وضعت فيها الأطعمة المقدّمة للميت. وتخلو هذه الآنية عادة من الزخرف، وقد تلوّن أحياناً ببعض اللمسات من اللون الأحمر القاتم أو الأسمر أو الأسود.

ومهما افتقرت هذه الفخاريات الى الابتكار فإنها لم يَعُزْها الاتقان، خصوصاً تلك التي صنعت في أقدم المراحل التاريخية وتميّزت بعض قطعها التي اتخذت هيئة انسان أو حيوان. وأقدم هذه القطع الفخارية عصفور عُثِر عليه في مذبح سلمبو وربّما جيء به من قبرص. وهناك نموذج خزفي آخر يأتي أيضاً من مذبح سلمبو ووعاء على شكل رعجْلَة.

وتجدر الاشارة الى وعاء بهيئة «سفنكس» مجنّح يلبس قبعة طويلة ومقرّنة. و«السفنكس» هو كائن خرافي له جسم أسد وأجنحة ورأس امرأة وصدرها.

ونشير كذلك الى مجموعة من سبعة أكواب، مرصوفة في صفّ واحد، ومزيّنة في جزئها الأوسط، وهي تكوّن قاعدة يرتكز إليها رأس امرأة.

٢ — **المصابيح**. — نطلق هذه التسمية في قرطاج، كما في كل

العصور القديمة، على وعاء صغير من الفخار المشوي يحتوي على زيت تغمس فيه فتيلة.

يتخذ أقدم هذه المصابيح شكل صدفة قد قلبت أطرافها وتقلّصت في ثلاثة مواضع على نحو أصبحت تؤلّف معه عنقين تمرّ عبرهما الفتيلة. وترتكز هذه المصابيح عادة على صحون صغيرة مثبّتة فيها أو مستقلّة عنها. ولقد تطوّر شكلها لتأثير النماذج المنقولة من اليونان، وأصبحت تصنع منذ القرن الخامس قبل الميلاد على هيئة وعاء صغير مغلق في جزئه الأعلى إغلاقاً شبه كامل، ومزوّد عند بطنه بعنق بارز. وتزيّن غالباً الأجزاء العليا من هذه المصابيح علامة تانيت.

٣ – التماثيل الصغيرة. – في القرن السابع والسادس قبل المسيح انتشرت في قرطاج صناعة التماثيل الصغيرة التي لا يتجاوز علوّها عشرين سنتمتراً والتي تمثّل امرأة مومياثية الشكل. ولا يبرز من مجمل التمثال إلا الرأس وحده.

وبلغ قرطاج تأثير الصناعة اليونانية وخاصة صناعة تاناغرة وميرينة فنتج عن ذلك في القرون اللاحقة مجموعة من التماثيل الأنيقة، المدهونة بالألوان الزاهية، والتي تمثّل جمهوراً من الآلهة الشرقيين. ومن هذه التماثيل: إلهة ترتدي بُرداً ويزيّنها عقد مؤلّف من عدّة صفوف؛ وتمثال رجل يلبس ثوباً وينسدل فوق كتفه لباس

كهنوتي ؛ وإلهة تمسك بحمامة أو ببولد ، ويغطّي رأسها تاج طويل.

وليست هذه الصناعة متقدّمة جدّاً ، فالفخّار المستعمل فيها رديء التلوين والشيّ. وهناك تماثيل لا تهدف الى خلق شعور فني مرهف ، ولكنها تلعب دوراً في الطقوس الدينية والجنائزية التي لا نعرفها حقّ المعرفة.

وثمّة عدد من القوالب الفخّاريّة المعدّة لصنع الكعك والمزوّدة بتجاويف يتولد منها عناصر زخرفة دينية أو دنيوية. ويتجلّى من خلال هذه الزخرفة تأثير الفن اليوناني. ومن هذه العناصر: فرسان ، ورأس امرأة فاغرة الفم وشعرها من الثعابين وأسماك ، وجِعْلان ، ودلافين. وغيرها.

واشتهرت في قرطاج صناعة الأوجه التي ظهر فيها الابتكار الى أبعد حدّ.

٤ – الأوجه القرطاجية. – يبرز الابتكار في هذه الخزفيات أكثر من غيرها. وتأتي الأوجه والتماثيل التي تصوّر النصف الأعلى من النساء من أقدم قبور قرطاج ، ويرجع عهدها الى القرنين السابع والسادس قبل المسيح.

وتؤلف تماثيل النساء النصفية مجموعة متناسقة ، فهي جميعاً من الفخار المشوي الأحمر ، المصنوع من طينة كثيفة قليلاً. وهي تمثّل بصورة دائمة نموذجاً نسائياً متشابهاً تقريباً : فالوجه مستدير

بيضوي ، والعينان لوزيتان ، والأنف مستقيم وطويل قليلاً ، والفم يميل الى الابتسام ، والشعر مجعّد عند الجبهة ومنسدل الى خلف الأذنين ، ويُزيِّن الوجه بعلامات زرقاء أو حمراء ربّما كانت وشوماً كما أنه يظهر باسماً طلقاً ويوحي بالتفاؤل . فهل صُنعت هذه التماثيل لتسحر الأموات أو الشياطين التي قد تعكر راحة الموتى ؟

وعُثر في اليونان وصقلية على تماثيل شبيهة ، يتجلى فيها الذوق الفني اليوناني إلا أنها لا تخلو من التأثير المصري في تفاصيل كثيرة منها .

وتصبّ أوجه الرجال في قوالب ، ثم تُسبغ عليها بعض اللمسات . وهي تؤلف مجموعة تختلف عن المجموعة السابقة اختلافاً كبيراً ، وتبدو على العكس من التماثيل النصفية النسائية ، عابسة ، معذَّبة ، بشعة أو مُضحكة ، يشقّ على المرء النظر إليها ويرجع عهدها جميعاً تقريباً ، مثل التماثيل النصفية النسائية الى القرن السابع والسادس قبل المسيح ، وهي تنقسم الى مجموعة كثيرة :

وتعرض المجموعة الأولى ، وهي الأقدم ، وجوه رجال لم ينبت عليها الشعر ، أنوفها طويلة فطساء ، ثقوب عينيها واسعة منحنية ، أفواهها متشنّجة ، ويرتسم على جباهها شكل دائري يعلوه هلال .

وتشمل المجموعة الثانية وجوه شيوخ مرد ، تغطّيها التجاعيد ، وتتصل بها أذنان انفرج ما بينها وبين الرأس وتظهر عليها كشْرة بارزة

ويزيّن الرأس الأصلع زخرف.

وتجسّد مجموعة أخرى أوجهاً رجالية جعداً يحيط بفمها الفاغر تجاعيد دائرية.

وتضمّ مجموعة أخرى وجوهاً ضاحكة وملتحية.

وهناك أخيراً وجهان جميلان جداً، متشابهان، يمثّلان وجه رجل هادئ، صفحته مستطيلة، مزيّنة بلحية، وأنفه مستقيم طويل، وعيناه لوزيّتان، وفمه كثيف، وشعره مجعّد. وتغشى هذا الوجه مسحة ذكاء ومكر وتدلّ هيئته الانسانية على أنه ليس إبداعاً فكرياً وحسب وانما هو أيضاً صورة رجل قرطاجي. وتتعلّق بأنف هذين الوجهين حلقة، وهي زينة بقينا نعتبرها حتى اكتشافها خاصة بالنساء في قرطاج.

ولقد زوّدت جميع هذه الأوجه المكتشفة، في ناحيتها الخلفية، بثقوب تُعلّق بواسطتها على حائط أو على باب، أو تثبّت على وجه ولد. ويعسر تعليقها على وجه رجل بالغ لأنها كانت صغيرة. وهي تستعمل لطرد الشياطين أو ربّما لدفع أذاهم.

٦ – الحلى

تضمّ أغنى مجموعات الحلى الشرقية المعروضة في المتاحف الكبيرة بعض القطع الفينيقية. وفي إيطالية نفسها، تأتي أجمل الحلى

الفينيقية الصنع من قبور يرجع عهدها الى القرن السابع قبل المسيح.

ولا عجب إذا ما عثرنا في أقدم المدافن القرطاجية التي تعود الى القرن السابع والسادس قبل الميلاد على عدد كبير من الحلى الذهبية والفضيّة. وأهمّ طريقتين اعتمدتا في الصياغة هما: زخرفة إطار المسبوكات بحبيبات، وفن التطريق.

ونطلق تسمية زخرف الحبيبات على مجموعات من الحبوب الصغيرة المنتظمة التي تصنع بواسطة مِنْقَاش وتبرز على صفحة ملساء. ولقد أَلِفَ الفينيقيون هذه الطريقة منذ العهود البعيدة. وهناك سبيكة مصدرها جبيل، يرجع عهدها الى القرن الرابع عشر قبل المسيح، معروضة في متحف اللوفر وهي تقدّم خير دليل على هذا النوع من الزخرفة. ويُسَمّى فنّ معالجة صفحة معدنيّة بواسطة مطرقة، مع قالب محفور أو دون قالب، فنّ التطريق. ولقد صنع القرطاجيون حسب هذه الطريقة عدّة صفائح، ليست سوى وريقات ذهبيّة مزيّنة برسوم حيوانات وبسُعَيْفات.

وأخذ أثاث القبور يفتقر، بالرغم من اتساع شهرة قرطاج. ولا نستخلص من ذلك أن احتياطيّ الذهب قد انخفض لدى القرطاجيين بل إنهم أصبحوا يخرجون على احترام التقاليد وأخذوا يقدّمون لموتاهم حلى لها قيمة هزيلة.

غير أن المتاحف ما زالت تحتفظ بمجموعة قيّمة من الأساور

والعقود والمناجد والخواتم والأقراط.

والأساور هي في أغلب الأوقات دوائر كاملة تتخلّلها أحياناً قطع اللازورد أو وُريقات مسطّحة مزيّنة ومطرّقة.

وتتألّف العقود جميعها من عناصر زخرفية كثيرة جداً ومتنوّعة في الغالب، ككريات الذهب أو الزجاج، والتمائم، وتماثيل الآلهة المتأثّرة بالنمط المصري والمصنوعة من العظم أو الحجر أو المعدن أو طين الصوّان.

وتُعلّق المناجد المستديرة بواسطة حلقة بشريط. وهي ليست نادرة. وكان القرطاجيون يحملون عوضاً عنها ختماً يُعْتَمَدُ كتوقيع. ويطبع هذا الختم عادة صور جعْلان على مثال ما عرفه المصريون، فالصفحة المقعّرة ترسم جُعَلاً أمّا الصفحة المسطّحة فتحمل نقشاً أو زخرفاً محفوراً. ويُثبّت الى الجُعَل المصنوع من العقيق الأحمر أو من الفخّار المطليّ بالبرنيق حلقة من ذهب أو فضّة يُدخل فيها شريط. وقد تكون هذه الحلقة أحياناً ضيّقة جداً، فيُحمل الختم وقتئذ في الإصبع. واستعملت للغاية نفسها خواتم ذهب كثيرة يتكوّن فصّها من وريقة ذهبيّة محفورة.

ولقد وصل إلينا عدد كبير من بُرات الأنف والخلاخيل والأبازيم والعصائب والأقراط التي تُعلّق في أغلب الأحيان بأذن واحدة. والحقيقة أن كل هذه الزينة تُعدّ من المنتجات الأقلّ ترفاً

بالرغم من أهميّتها.

ولا شكّ أن شذور الذهب التي ما زالت تنتشر بعد ألفي سنة على رمال الشواطئ حيث امتدّت قرطاج القديمة هي أدلّ على غنى الحلى الفونية من قطع المصاغ التي بلغتنا.

ولا نملك عن الصياغة الفونية ما يكفي لأخذ صورة واضحة عنها. فالآنية القرطاجية قليلة بين أيدينا كما أنها من النوع العادي ولدينا منها بعض الأباريق التي يحيط بأطرافها زخرف على شكل ضلع، وكؤوس خالية من التنميق، وأحواض، وأوعية نادرة من أصل يوناني.

ولا تعرض لنا هذه الآنية سوى فكرة هزيلة عن الصياغة الفينيقية التي تغنّى بها هوميروس وأثارت اهتمام سليمان. ويضمّ كنز «البارسيد» في قرطاج أكثر من مئتين وسبعين كأساً ذهبيّة ووعاءً وإبريقاً. والحقيقة أن هذا الكنز، وزينة المعابد والمباني العامّة، وكل الأموال العامّة والخاصّة قد دُفعت لروما لتأدية الجزية الباهظة الناجمة عن خسارة الحروب كما أنها استخدمت لسدّ آخر النفقات التي احتاجت إليها المدينة المحاصرة.

١ – مواس الحلاقة. – هي شفرات رقيقة من معدن، تتخذ شكل فأس صغيرة. وتنتهي في أعلاها بقطعة معدنية على هيئة عصفور أو رأس بطّة أو تمّ، وتعيد الى الذهن صورة بعض شفرات

الفؤوس الصغيرة والقديمة، لا بل تذكّر بطريقة أوضح بالمواس المصرية. ونميل الى رفض التصوّر الأول بسبب طبيعة شفرة هذه الآلات واستحالة تزويدها بمقبض.

ومن جهة أخرى يدلّ غنى الزخرف الذي يزيّن النصل على أن هذه المواسّ ليست ذات طابع نفعي وإنما لها صفة نذرية أو سحريّة. فقد عُثر عليها في قرطاج في المقابر التي ترجع الى القرن السابع وكانت في اغلبيّتها قليلة التنميق. ومنذ القرن الرابع، أصبحت على العكس تزيّن برسوم أشخاص وعصافير ومشاهد طقسيّة قد تجلّى في بعض تفاصيلها التأثير المصري واليوناني ولكنها بقيت في مجملها فونية الى حدّ كبير.

وقد تدلّ هذه المواس السحرية المكتشفة في المدافن قرب أوجه الموتى على ضرورة حلق شعر الجسم كلّه أو جزء منه وذلك قبل ان يتمتّع المرء بحياة أخرى سعيدة. ولم يعرف هذه العادة سوى بعض المطّلعين على أسرار الدين. ولا يزال هذا الطقس منتشراً عند بعض المسلمين ولا يمكننا نسبة أصله الى القرطاجيين دون الاعتماد على مزيد من الأدلّة.

٢ – صناعة الزجاج. – لا شك ان سكان صيدون وصور وقرطاج قد حسّنوا طريقة صنع الزجاج وخاصة صناعة الشفّاف منه بالرغم من أن ابتكاره يرجع الى المصريين. فالكريات الزجاجية هي

من العناصر التي يغلب انتظامها في العقود. وقد تنظم الى جانب كريات الذهب فتبدو أكثر تألقاً. وتجدر الإشارة كذلك الى أوجه صغيرة مصنوعة من عجين الزجاج.

٣ – **العاجيّات**. – يدخل العاج والعظم غالباً في أثاث القبور الأكثر قدماً في قرطاج، ويُستعملان في صنع الأمشاط والدبابيس والأساور والخواتم وعلب الحلى والتمائم الكثيرة ومقابض المرايا والسكاكين.

ويُعدّ العاج الخام مع المعادن الثمينة والأرجوان من المواد الأولية التي تشملها التجارة القرطاجية.

٧ – الأثاث

نكاد نجهل كل شيء عن الأثاث. إلا أن بعض التمائم تعرض لنا هيئة عرش الآلهة والمقاعد التي لا ظهر لها ولا ذراعين، كما تمثّل لنا كراسي ثابتة، واسعة، بسيطة، مزوّدة بظهر. وبذلك تقدّم لنا هذه التمائم فكرة عن الشكل المفترض لمقاعد الحقبة الفونية.

ومن جهة أخرى، كشفت أعمال التنقيب في «سميرات» المدفن الفوني الواقع على الساحل التونسي، عن صناديق خشبيّة معدّة لتحفظ فيها عظام الأموات. ولقد استعمل مثل هذه الصناديق قبل ذلك داخل المنازل، يدلّنا على ذلك ما يحمله بعضها من آثار

الاستهلاك والاصلاح. ويبلغ طول الصندوق تقريبا ١٨٠ سنتمتراً، وعرضه ٥٠ سنتمتراً. وهو ثقيل الوزن يعلوه غطاء له مفصّلات وقفل. ويدلّ وصل الخشب في هذه الصناديق على اتقان مدهش كما يدلّ على استعمال المسحاج والمثقب والمبرد.

الفصل الثامن

قرطاج الرومانية والبيزنطية

في سنة ١٤٦ قبل المسيح ، استولى «سيبيون» على قرطاج ، بعد حصار دام ثلاث سنوات ، ودمّر كلّ ما نجا من نار الحرب ، بعد أن تلقّى أمراً بذلك من مجلس الشيوخ في رومة. وهكذا لم يبقَ من المدينة العظيمة حجر على حجر.

وهبطت اللعنة على أرض قرطاج ، ومُنع منعاً باتّاً من البناء عليها. وما كاد ينقضي أربع وعشرون سنة حتى عصي «كايوس غراكشوس» آلهة الجحيم ، وحاول ان يؤسس فيها مستعمرة. وغدت قرطاج بفضل موقعها الجغرافي ، وأهميّة مرفأيها ، مفتاحاً لأفريقية ، فكانت تمرّ فيها طرق التجارة البحرية والبرية. أما موضعها الذي يعتبر ضرورياً للسيطرة على أفريقية ، فيبيّن لنا التناقض الواضح الذي وقع فيه الرومان عندما أعادوا بناءها.

وبعد أن عاث البؤس والجوع فساداً في رومة ، وُزّعت على الفقراء المعدمين والناقين المساحات الواسعة والمهملة التي تمتدّ على الأرض القرطاجية الملعونة ، بمبادرة ديمقراطية ، تهدف خاصّة الى

تخليص عاصمة الرومان منهم. وأبحر «غراكشوس» سنة ١٢٢ قبل المسيح الى قرطاج، يحيط به ثلاثة قضاة، ويرافقه ستة آلاف رجل، فنزل في تلك المنطقة، وأسماها بمستعمرة «جونون». و«جونون» هو الاسم الروماني لشفيعة المدينة، الإلهة العظيمة التي أطلق عليها في الحقبة الفونية اسم «تانيت».

لكن الأشراف الرومان، أعداء الغراكشيين، والمناهضين لكل مبادرة ديمقراطية. نجحوا في أن يُلغوا بواسطة مجلس الشيوخ القوانين التي تنصّ على أنشاء هذه المستعمرة، إذ انها أول مستعمرة تقع ما وراء البحار.

ولم تلقَ محاولة إنشائها أيّ دعم، وبقيت تنمو نموّاً بطيئاً. ومع أن رفقاء «غراكشوس» لم يستفيدوا من المنافع التي تعود عادة الى المستعمرات الرسمية. فإنهم استقروا في أرض قرطاج واستغلّوها. وأما اللعنة التي أناخت بثقلها على المدينة الفونية. فهي تحمل على الاعتقاد بأن قلبها نفسه، الواقع بين المرفأين و«بيرسه»، بقي غير آهل. وأقام المنفيّون الرومان طوال ثمانين عاماً في الضواحي وفي «مغارا» خصوصاً، الى جانب بعض القرطاجيين الذين نجوا من القتل أو الذين كانوا في رحلة بعيدة عند حصار قرطاج. وانضمَّ الى هؤلاء تجار ينتسبون الى كل الجنسيّات.

وقرَّر قيصر، في سنة ٤٤ قبل الميلاد. أن يتابع عمل

«غراكشوس» ، فجعل قرطاج مستعمرة ، ومُنح الجنود والأهالي ، الذين أقبل بعضهم من «أوتيك» والمدن المجاورة ، الأراضي غير الآهلة في قلب المدينة . وأعيد بناء قرطاج سنة ٣٥ قبل المسيح ، وتألّق نجمها طيلة قرون ، وعرفت ، بعد الصعوبات التي اعترضتها في أول عهدها ، ازدهاراً عجيباً ، بفضل موقعها الجغرافي ، ونشاط مرفئها ، وسيطرتها على التجارة الداخلية في أفريقية ، وأصل سكانها .

وازدادت حركة التجارة البحرية فيها في وقت قصير ، وأصبحت مراكب القمح الأفريقي الذي يزوّد رومة بالجزء الأكبر من مؤونتها تشحن في مرفأي قرطاج .

وشيّد الامبراطور «أدريانوس» المحبّ للعمران مسكنين فيها ، وأمر بشقّ طريق جميل وبإنشاء قناة عجيبة يبلغ طولها ١٣٠ كيلومتراً ، لتنقل المياه من جبال «زغوان» الى قلب المدينة ، ولتمدّ الحمّامات التي بُنيت أو رُمّمت على طلب من «انطونين» .

ويحدّثنا «أبوليه» ، وهو من أشهر المواطنين القرطاجيين ، بأن «المدينة كانت ملأى بالقصور الفخمة والبيوت المزيّنة كالمعابد» .

وفي سنة ١٨٦ ، خصّ الامبراطور الروماني «كومّود» قرطاج بأسطول بحري .

وهكذا بعد ثلاثة قرون من سقوط يصعب النهوض منه ، حافظت قرطاج على اسمها الفوني ، وأخفقت محاولة تغييره مرّتين .

وفاقت روعة مبانيها مباني رومة نفسها ، واحتضنت في مرفأيها اللذين أعيد إنشاؤهما أسطولاً حربياً ، ولاقى معبد الإلهة «جينون – كايلستس» التي تسمّى بالفونية تانيت شهرة عالمية. ونافست كاهناتها كاهنات «دلف» في استكشاف الغيب. ومع أن أفريقية قد أصبحت فيا بعد غير راضية عن تزويد رومة بالقمح ، إلا أنها جادت بإمبراطورين من أبنائها على عاصمة الرومان ، هما «سبتيموس سفيروس» «ماكرين».

ودبَّ الانحطاط والفوضى في الامبراطورية طوال القرن الثالث ، فأثّر ذلك في قرطاج ، حيث وجد المتآمرون والمغتصبون أشياعاً وأعواناً. وفي سنة ٣١١. عندما أراد «مكسنس» أن يعيد غزو أفريقية ، انطلقت المقاومة ضدّه من قرطاج ، فقمعها بصورة فظيعة. ولم يستطع قسطنطين أن يعيد الاستقرار ، لأن الصراعات الدينية عقبت الصراعات السياسية.

وفي سنة ٤١٦ ، هاجم البربر الامبراطورية ، فاستولى «ألاريك» على رومة. ولجأ الى قرطاج كل من سنح له الوقت وتوفّرت له الوسائل لاستئجار مركب. وأصبحت قرطاج غنية جداً. وغدت ملاذاً أخيراً للامبراطورية الرومانية ، فلذا تحوّلت إليها هجمات «الفاندال». ودخلها «جنسريك» في سنة ٤٣٩ ، وجعل منها عاصمة له. فحملت هذا النير طيلة ستين عاماً ، وقاست في ظلّ

الاستعباد من النزاع الداخلي والاضطهاد.

وفي سنة ٥٤٨، غزاها «بليزير» من جديد، وأخضعها لسلطة الامبراطورية البيزنطية. وهلك فيها قسم كبير من السكان في حركات العصيان والطاعون. وأخذ نجمها يأفل شيئاً فشيئاً بالرغم من اهتمام الأباطرة بها. وفي سنة ٦٩٦، بعد أن استولى العرب على القيروان، أرسلوا إليها «حسناً»، فلم يلقَ سوى مدينة كبيرة خالية من السكّان، ولم يقابل في احتلالها وتدميرها وإخضاعها سوى قليل من المشقّة.

وبعد ألف سنة من ذلك، حوّل بنّاؤو تونس وإيطالية قرطاج الى مقلع ضخم، يستخدمون حجارته ورخامه، فأدّى ذلك الى اندثار معالمها.

١ – الدين

بعد أن احتلّ الدين مكانة هامّة في الحياة الفونية، عاد ليلعب دوراً أساسياً في قرطاج الرومانية والبيزنطية.

وتبدّلت أسماء الآلهة الفونية القديمة، وأصبحت تانيت «جونون كايلستس»، ولم تفقد أحداً من عبّادها. لا بل تكاثر أشياعها بين الرومان. وأطلق اسمها الروماني على مستعمرة الغراكشيين، وأكرم تمثالها في الكابيتول. وبقي معبدها الملجأ الأخير للدين الوثني الرسمي، ولم يهدم إلا في سنة ٤٢٦ بعد المسيح. وظلّ بعل حمّون يُكرّم في كل افريقية الرومانية، بعد أن عرف فيها باسم «ساتورن». ولم ينقطع

الاف الناس عن تقديم الالواح النقوشية الكبيرة له ، كما كان ذلك في المرحلة الفونية. وأما الذبائح البشرية ، فقد استمرّت في الخفاء ، حتى وقت متأخّر ، مع أنها كانت محظَّرة كما نعلم.

وحلّت عبادة «اسكولاب» محل عبادة أشمون. والواقع ان لا اختلاف بين هذين الإلهين إلا في الاسم.

وتعبّد الناس في قرطاج لإلهة النصر فكتوريا ، وللأباطرة. واستقرّ في المدينة جماعة كبيرة من اليهود بعد تشتّتهم ، ومايؤكّدذلك مدفن يهودي من القرن الأول ، اكتشف في «غامارت» ، شمال المدينة.

وأما المسيحية فقد عرفت نهضة سريعة ، وأصبحت كنيسة افريقية في زمن قصير مساوية لكنيسة رومة ومنافسة لها.

ومنذ القرن الثاني ، غدت الطائفة المسيحية في المدينة ، وهي من أقدم الطوائف في أفريقية ، الأولى من حيث أهمّيّتها وعددها ونوعها وجرأة مؤمنيها ، على الرغم ممّا قاست من اضطهادات. واشتدّت هذه منذ مطلع القرن الثالث ، واستشهد الصلّيون في سنة ١٨٠ ، والقديسة «بربيتو» ورفقاؤها في سنة ٢٠٢. وتوقّفت ملاحقة المسيحيين من سنة ٢١١ حتى سنة ٢٥٠ ، وسرعان ما عادت بعد ذلك. فكان من أشهر الضحايا أسقف قرطاج القديس «سبريان» الذي استشهد سنة ٢٥٨.

ومن أكبر المدافعين عن الدين المسيحي ، «ترتوليان»

القرطاجي ، الذي عاش في القرن الثالث.

وتنظّمت الكنيسة المسيحية في قرطاج ، واتّخذ أسقفها لقب كبير أساقفة أفريقية. وفي سنة ٤٠٠ ، اعتلى كرسيّ الاسقفية «أوريليان» ، صديق القديس أوغسطينوس ، وصاحبه الذي لا يفارقه والذي كافح خلال سنين طويلة الى جانبه. ولقد وعظ القديس أوغسطينوس مئات من المرّات في قرطاج ضدّ البدع الدوناتية والمانوية والبيلاجيوسية.

وفي سنة ٤١١ ، عقد في قرطاج اجتماع ضمّ أكثر من ستّ مئة أسقف كاثوليكي ودوناتي. ويدلّ هذا العدد على أهميّة اكليروس الكنيسة المسيحية في أفريقية وانتشاره فيها. وأُقيم في المدينة من سنة ٢٠٠ الى سنة ٥٩٤ اثنان وثلاثون مجمعاً ، دُعِيَت «بمجامع قرطاج» ، وجعلت من عاصمة القرطاجيين ، في آخر عهد الامبراطورية ، مركزاً للمسيحية المشرقة ، وأصبحت أساساً للنظام الكنسي المسيحي.

وشيّدت في قرطاج نفسها اثنتا عشرة كنيسة ترجع الى هذه المرحلة التاريخية. وعندما استولى «بليزير» على المدينة عقب الاجتياح الفاندالي ، رمَّم هذه الكنائس ، وبعد ذلك بقليل سقطت قرطاج أمام الهجوم العربي غير أن شعلة المسيحية قد استمرّت فيها بعض الوقت ولكن ما لبث أن انطفأت قبل أن يأتي

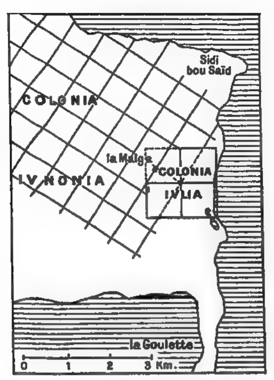
ملك فرنسة ، القديس لويس ، الى تلة بيرسة القديمة حيث مات سنة ١٢٧٠ . وفي أيامنا هذه ، ما زالت ترتفع عليها كاتدرائية .

٢ – البُنيان

لم يبقَ من قرطاج الثانية سوى آثار قليلة اكتشف بعضها بفضل الأعمال التي بوشرت منذ زمن قصير ، وأما بعضها الآخر فقد أزيلت الأنقاض عنه ولم يَغِب ذكر مواضعه كليّاً .

واعتمد الرومان قواعد محدّدة في بناء مدينتهم توافق مفاهيمهم القانونية في تنظيم المدن وتوزيع الأراضي . وتعرض هذه القواعد نظامين مختلفين يناسبان حقبتين زمنيتين ونمطين من الاستعمار (أنظر الرسم المقابل) . ولا شك أن مسح الأراضي الريفية في مستعمرة الغراكشيين الأولى قد اتصفت بطابع زراعي فبقيت على الأرض التي تأسّست عليها مستعمرة جونونيا عام ١٢٢ قبل الميلاد ، آثار تقسيمات طوبوغرافية . وتتألف هذه التقسيمات من مضلّعات رباعية واسعة ، تبلغ مساحة كل منها خمسين هكتاراً ، وتتجه اتجاهاً شمالياً جنوبياً وتمتدّ الى شمال القلعة الفونية القديمة وغربها ، من « لامالغا » حتى سيدي بو سعيد وتغطّي « المرسى » وتصل حتى « غامارت » .

فالمباني والمجارير التي مازالت قائمة تؤيّد المعطيات التاريخية والطوبوغرافية لهذا الفرز الواسع للأراضي الزراعية التي تكوّنت منها المستعمرة الرومانية الأولى .



مسح قرطاج الرومانية

(كما جاء في كتاب س. سومانيه «مستعمرة جوليا القرطاجية». سنة ١٩٢٤. صفحة ١٣٥)

وأما المستعمرة الثانية فهي «جوليا – كرتاغو» التي أُنشئت برغبة القيصر وعلى أمر من أوغسطوس نحو سنة ٣٥ قبل المسيح (أنظر الرسم في الأعلى).

وتقع هذه المستعمرة محلَّ المدينة الفونية التي حاربها «سيبيون» وهبطت عليها لعنة مجلس الشيوخ الروماني.

وليس من قبيل الصدفة أن تتلاقى ثلاثة أطراف من المضلّع الرباعي الذي يمثل مستعمرة «جوليا كرتاغو» مع مخطّط المدينة الفونية الأولى. ويتكوّن رابع طرف، في المضلّع الذى امتدّت عليه المدينتان المتعاقبتان، من الشاطئ.

والأراضي المفرزة في هذه المستعمرة صغيرةٌ جداً فهي مربّعات مساحة كل منها أربعون آراً، تفصل بينها شوارع عرضها سبعة أمتار وطولها ١٧٠٠ متر. ويمتد في هذه المستعمرة طريقان رئيسيان، عرضهما أحد عشر متراً ونصف المتر، يلتقيان عند نقطة مركزية تقع وسط قلعة بيرسة حيث يقوم حالياً صدر الكاتدرائية. ويقسم هذان الطريقان «جوليا كرتاغو» إلى أربعة مربّعات كاملة، يؤلّف كلّ منها وحدة سكّانية تشتمل على مئة شخص.

وتقدّم أعمال التنقيب دليلاً ساطعاً على صحّة هذا التقسيم. فخارطة المجارير التي تمتدّ موازية لخطّي الشارعين، تؤكّد المخطط الخارجي للأراضي المفرزة كما يدلّ على هذا المخطط بقايا الجدر الرومانية أو المباني المنتصبة.

التحصينات. لم تجهّز المدينة، في الحقبة الرومانية، بالحصون العسكرية، إلا في وقت متأخّر جداً. ويفسّر غياب الأسوار بالطابع الزراعي الصرف لمستعمرة الغراكشيين. أما المدينة بحصر المعنى فيرجّح أن خوف الرومان الخفي كان سبباً لعدم تحصينها زمناً طويلاً.

وفي منتصف القرن الخامس بعد الميلاد رأى أمبراطور بيزنطة ، تيودوس الثاني ، أن يبني جدراً متينة لحماية المدينة من البربر.

ولا نكاد نعرف شيئاً عن مخطّط هذا السور الذي فُتحت فيه تسعة أبواب. وما نزال نرى في أمكنة مختلفة بعض بقايا الجدر التي يمكننا أن ننسبها إليه. ومن هذه البقايا ، حائط ضخم يقع على السفح الجنوبي من تلّة بيرسة وما انفكّ يظهر للعيان. وفي أواخر القرن الماضي أشار المنقّبون في قرطاج الى وجود باب وجدر لم يبقَ منها شيء الآن.

١ — الحمّامات. — لا شكّ أن أهمّ أثر ما يزال ماثلاً في المدينة الرومانية هو مجموع المباني التي يقال لها حمامات أنطونين (أنظر الخارطة في الصفحة ٥٢ — ٥٣).

ويقع هذا الأثر الذي يبلغ طوله بضع مئات من الأمتار على شاطئ البحر عند سفح تلّة برج جديد ، شرق «دويمس». ويروي التقليد أن أطناناً من الرخام وعدداً كبيراً من الأعمدة قد نُقلت منه لتشييد أبنية متوسطية كثيرة من بينها كاتدرائية بيزا. ويبدو ذلك مؤكداً لأن أعمال التنقيب التي قامت بها إدارة الآثار التونسية منذ سنة ١٩٤٥ وهدفت الى النبش عن هذا البناء الضخم نبشاً منظّماً وكاملاً تدلّ على الحفر التي أحدثها المنقّبون ، والباحثون عن الحجارة. لقد جازف هؤلاء أيما مجازفة ليسرقوا الرخام الذي يكسو الجدران.

وفي كثير من الأحيان تسحق الأنقاض الضخمة المتساقطة من قباب الطبقة العليا للحمّامات الغرف السفلية أو تحفظها أحياناً أخرى من الاندثار. وسرعان ما تُرفع الأنقاض عن هذه الغرف التي تصبح مكشوفة للعيان.

وتشتمل الطبقة السفلى التي تمتدّ على مستوى سطح البحر على غرف واسعة كثيرة مواجهة له ، تتجاوز مساحة كل منها ٣٠٠ متر مربّع . وتتكوّن جدرانها من الحجارة الكبيرة ، ويزيّنها صفّان من الأعمدة ، ويغلّفها الرخام المنحوت نحتاً غنيّاً . غير أنه لم يبقَ من هذا التغليف سوى بعض القطع لأن هذا القسم من البناء قد نهبه الباحثون عن الحجارة. وما زالت هذه الغرف سليمة من الداخل بسبب التراب الذي تراكم فيها وحفظها من السلب. وهناك غرفة مثمّنة الأضلاع يبلغ قطرها عشرين وتستند الى ركيزة عند مركز المثمّن والى ثماني ركائز أخرى عند زواياه . وتضمّ هذه الغرفة رواقين متراكزين وتشهق قبابها تسعة أمتار وتدعم في الطابق العلوي غرفة متعدّدة الزوايا. وبالاضافة الى ذلك رفعت الأنقاض عن ثلاث غرف وطيئة تعلوها قنطرة نصف أسطوانية كما اكتشفت غرف أخرى.

ويمكن أن نشاهد في الطبقة الأولى غرفة مدفأة وحوضاً. وما يدلّنا على روعة هذا الأثر المتهدّم أبوابه الفخمة وجدرانه التي

تتجاوز كثافتها أربعة أمتار وقطع رخامه الكثيرة وأفاريزه المزيّنة بزخرف يمثّل أغصان مزهر ، وطيوراً ، وأقنتاً وأعمدته الملساء والمقنّاة وبعض رؤوس الرخام الرائعة التي تأتي من تماثيله ، وأكسيته الفسيفسائية. ويوضح لنا هذا الأثر الذي تداعى الجزء الأكبر منه مقدار حجم المباني القرطاجية وغناها.

وكشف في قمّة تلّة الكرمل عن فرن أرضي يجعلنا نعتقد بوجود حمّامات أخرى قائمة في قلب المدينة قد تكون حمّامات كارجيليوس التي أشار إليها القديس اغسطينوس. وما يؤكد وجودها في هذه الأمكنة المرتفعة قناة تربط جبل الكرمل بالقناة الرئيسية.

٢ – **خزانات المياه**. – تمتدّ خزّانات برج جديد (أنظر الخارطة) على عقار كامل مفروز حسب المسح الروماني. وتدلّ حالتها الحاضرة على أن بناءها يرجع الى الحقبة الرومانية. ولا يتعدّى طول واجهتها الرئيسية حالياً ٣٥ متراً وتتعاقب هذه الخزانات فيصل عددها الى ثمانية عشر، وتبدو مقبّبة ويبلغ عمقها تسعة أمتار وسعتها أربعين الف متر مكعّب من الماء كما أنها مغطّاة برصف من الحجارة تعلوه طبقة من الاسمنت الصلب جدّاً. ولقد رمّمت هذه الخزانات وأعيد استعمالها سنة ١٨٨٨ نظراً لقدرتها على حفظ المياه. وهي تستخدم حالياً . كما في عهد أدريانوس ، كخزان بلدي تحفظ فيه المياه.

ويعتقد بأن هذه الخزانات كانت تزوّد بالمياه حمّامات أنطونين القريبة منها وربما اتّصلت بالقناة الرئيسية. ولا يختلف الأمر مع خزانات «لا مالغا». فمجموعة هذه الخزانات الفخمة الواقعة الى الشمال الغربي من المدينة ترجع أيضاً الى عهد أدريانوس ويشمل أربعة وعشرين خزاناً وتظهر كبيرة الحجم إذ يبلغ طولها ٨١٦ متراً وعرضها ٨ أمتار. وقد أصبح الآن الاقتراب منها عسيراً.

واكتشفت أثناء أعمال التنقيب والبناء خزانات أخرى كثيرة نذكر منها تلك التي عُثر عليها في بيرسة تحت الكاتدرائية، وعلى تلّة الكرمل.

٣ – **المسرح وقاعة الغناء**. – دمّر الفاندال هذين المبنيين المتجاورين (انظر الخارطة) اللذين يقعان الى الشمال الشرقي من المدينة. وكان المسرح مزيّناً أجمل تزيين كما أن موقعه أصبح معروفاً.

٤ – **السيرك والمدرّج**. – يشبه السيرك الواقع في غرب المدينة سيرك روما من حيث أبعاده ويتجاوز طول ميدانه ثلاث مئة متر وقد يسع مبناه أكثر من ألفي مشاهد.

أما المدرّج فتُقارب قياساته قياسات مدرّج الكوليزه في رومة.

وعلى الرغم من قلّة آثاره الباقية، اكتشفت فيه ألوف من النقوش وقطع النحت.

وتصف لنا هذا المدرّج وصفاً دقيقاً رواية استشهاد القديستين «بربيتو» و«فليسيته» داخل سوره.

وتدلّ بعض المزارع الرومانية المكتشفة في جواره على أن هذه المنطقة البعيدة عن قلب المدينة كانت مأهولة بالسكّان.

٥ – المعابد. – لم يبقَ أي أثر من المعابد التي بلغتنا شهرتها من خلال النصوص القديمة. واختلفت الآراء في أغلب الأحيان حول تحديد مواضعها.

ولقد بني معبد «أسكولاب» على قمّة بيرسة كما شيّد في الحقبة الفونية على هذه التلّة، معبد أشمون.

وعند بناء دير الآباء البيض الذي يشهق في أيامنا جنوبَ الكاتدرائية، على تلّة بيرسة، اكتشفت حين نكش أسسه مساحة واسعة مبلّطة وبعض قطع الأعمدة وجدار سور وباطيّة تحمل إهداء لاسكولاب. ونستخلص من ذلك أن معبد هذا الاله كان يرتفع في هذه المنطقة كما أقيم قبله على قلعة بيرسة معبد الإله الفوني أشمون.

واكتشف سنة ١٩٤٨ إهداء لاسكولاب على قطعة ثقيلة من الرخام عند قمّة التلّة التي يقع عليها المسرح. ويحملنا ذلك على الاعتقاد بوجود موقع جديد لهذا المعبد ربّما يوضح التنقيب هذا الغموض. ويبدو ان معبد «الكونكورد» وربّما أيضاً «الكابيتول» كانا يقومان في مكان الكاتدرائية.

ويقع معبد «السيرابيوم» المهدى الى «سيرابيس» في الزاوية التي تكوّن في الوقت الحاضر من الطريق المؤدّي الى حمّامات انطونين ومن خطّ القطار الكهربائي. ولم يبقَ حالياً منه أي أثر ظاهر. لكن التنقيب الذي أجري في هذه القطعة من الأرض كشف عن إهداءات كثيرة مقدّمة لهذا الاله، وعن رأس لسيرابيس موضوع الآن في متحف اللوفر، وعن فسيفساءات وغيرها.

وأما معبد ساتورن فعلينا البحث عنه في محلّ مذبح قرطاج القديم في سلمبو، أو في جواره. فهذا المكان الذي ضمَّ رماد الذبائح المقدّمة لبعل حمّون طوال قرون طويلة عُثر فيه على عدد كبير من الالواح النذورية التي كان يقرّبها أعضاء الاكليروس لساتورن. وتأتي هذه الألواح النقوشية من الجزء الشرقي للمذبح ومن أعلى الطبقات الأرضية. وتؤكّد هذه الاكتشافات تشابه بعل حمّون وساتورن.

ولم نتمكّن من العثور على معبد تانت التي أطلق عليها في الحقبة الرومانية اسم كايلستس وأصبحت كما في العهد الفوني ملكة لآلهة قرطاج.

ويجدر البحث عن هذا المعبد بين بيرسة والبحر، في المكان الذي يقال له «درماش»، حيث وجد «سانت ماري» ألوفاً من الألواح النقوشية الفونية المهداة لهذه الالهة ولبعل.

وكما نعلم، أحاط بهذا المعبد سور واسع جداً وانتشرت شهرته حتى بقي بعد سائر مراكز الوثنية ولم يُهدم إلا في سنة ٤٢١ على أثر أمر من قسطنطين. وفي هذه المرحلة التاريخية لا بل قبلها لوقت طويل، كان المسيحيون يسيطرون في قرطاج.

٦ – **الكنائس**. –كانت الكنائس منتشرة في قرطاج، فقد نُبش في الوقت الحاضر بصورة جزئية عن ستّ كنائس ولكن الوثائق القديمة تشير الى وجود أكثر من اثنتي عشرة.

وتقع معظم الكنائس في قرطاج في الأحياء المنزوية عن قلب المدينة لا بل خارج سورها كما في كثير من المدن الرومانية الجزائرية. ويرجع ذلك، قبل صدور مَرسوم قسطنطين، الى تدابير أمنية والى صعوبة الحصول على أراضٍ في قلب المدينة نظراً لارتفاع أسعارها.

وأهمّ مبنى مسيحي في قرطاج هو ما اتفق على تسميته بكنيسة «داموس الكريتة».

ولقد شيِّدت هذه الكنيسة على إنشاءات وثنيّة سابقة، ويعود عهدها الى أواخر القرن الرابع وهو العصر المشرق لتاريخ المسيحية في قرطاج.

وتشتمل هذه الكنيسة على فناء واسع نصف دائري يحيط به رواق يستند الى أعمدة من الرخام الأسود. وفي آخر هذا الفناء ينفتح مصلّى يتخذ شكل ثلاث وريقات من النفل ويحتوي على قبر شهيد

ويجاور غرفة مقبّبة وبقايا خزّان ، ويقع في وسط الفناء حوض ماء . وتبدو هذه الكنيسة القائمة في الجنوب الغربي مستطيلة واسعة يبلغ طولها ٦٥ متراً وعرضها ٤٥ متراً . وتنقسم باتجاه الطول الى ثمانية صفوف من الأعمدة وتضمّ تسعة جوانح .

ويقطع جانح عرضيّ الجانح الرئيسي الذي لا يتجاوز عرضه ١٢.٨٠ متراً ويؤلّف معه صليباً لاتينياً . وما زالت الجوانح المستطيلة التي تفصل بينها الركائز ماثلة الى الآن الى جانب بعض قطع الغرانيت الرمادي المتبقّية من الركائز . وفي وسط هذه الكنيسة المستطيلة ، عند ملتقى الجانح الرئيسي بالجانح العرضي تبدو الركائز أكثر ضخامة فربّما لأنها كانت تحمل قبّة . وما زالت ظاهرة في وسط الجانح الرئيسي القواعد الأربعة للظلّة التي تعلو المذبح . وأما أعمدتها فكانت من الرخام الأخضر وتيجانها من الرخام الأبيض .

وينتهي الجانحان الكبيران بمذبح في الجنوب وآخر في الغرب .

وتلتصق كنيسة أخرى يُقال لها كنيسة بيت العماد بالواجهة الغربية للكنيسة السابقة ، ويبلغ طولها ٣٤ متراً وعرضها ٢٤ متراً ، ويقع بيت العماد في وسطها . ولم تحفظ كسابقتها من الاندثار لأنها بُنيت بموادّ رديئة . ولا زلنا نرى فيها غرفاً كثيرة كغرفة الثياب والسكرستيّة والمصلّيات .

وأما كنيسة «داموس الكريتة» فهي مبنى عريض فُتحت

الابواب في جانبيه وواجهته وهو يشبه كنائس الشرق ويذكّر بالكنائس السورية أكثر مما يذكّر بالكنائس الغربية البدائية.

ويقوم في غرب هذه الكنيسة دير فيه مصلّيات وهياكل ربّما كانت من بقاياه. وهناك أيضاً مدرسة وغرف كثيرة للاجتماع والولائم وبناء مستدير يثير الفضول ويقع تحت سطح الأرض، في الجنوب الغربي من كنيسة بيت العماد.

وليس هذا البناء سوى حجرة دائرية، لا يتعدّى محيطها الثلاثين متراً، قد حُفرت في جدرانها تسع مشاكٍ تفصل بينها أعمدة. ويعلو هذه الحجرة قبّة لا تزال نرى بقايا منها، وتزيّنها فسيفساءات، ويمكن الوصول إليها بواسطة رواقين مجهّزين بدرجين متقابلين. وربّما استعمل هذا البناء كبيت عماد الى جانب ذلك الذي في الكنيسة المجاورة. وكان يحتوي على الأرجح على قبر شهيد ويقارب كثيراً الضريحين الرومانيين المخصّصين لديوقلسيانوس وللقديسة كونستانس. ويبدو في حالته الحاضرة المبنى الأفضل حفظاً والأبلغ تأثيراً من بين مباني قرطاج المسيحية.

ولقد عُثر في الغرف التابعة له على نواويس كثيرة مزيّنة بزخارف تمثّل الراعي الصالح ومشهد تكثير الأرغفة، كما عُثر على آلاف من النقوش والفسيفساءات والنقوش البارزة. وبالرغم من هذه الوثائق الكثيرة لم يصل إلينا اسمه القديم.

وتقع كنيسة «المايوروم» بين «سانت مونيك» و«المرسى» ؛ خارج الأسوار ، وتُعدّ الأقدم في قرطاج . ويشتمل داخلها على مبنى صغير يُقال له مبنى «الاعتراف» . وتضمّ هذه الكنيسة ، حسب النقوش رفات القديستين «برببتو» و«فيليسيته» اللتين استشهدتا في قرطاج سنة ٢٠٢ . ولقد أُعيد بناؤها في الحقبة البيزنطية ثم دمّرت بطريقة منظّمة . ولا يمكننا أن نرى منها حالياً سوى قليل من الآثار ، غير أنه قد شيّد على مبنى الاعتراف مصلّى صغير حديث .

وفي سنة ١٩١٧ ، كشف عن كنيسة «سان سيبريان» المنتصبة قرب البحر على حدّ قول بروكوب . ويبدو موقعها جميلاً جداً ، وتشمخ على هضبة يبلغ ارتفاعها أربعين متراً وتطلّ واجهتها على البحر ويمتدّ داخل هذه الواجهة فناء مستطيل . وتشمل هذه الكنيسة سبعة جوانح ولا يتعدّى طولها ستين متراً وعرضها خمسة وثلاثين متراً . وقد تمّ إنشاؤها ، قبل وصول الفاندال ، على مقبرة مسيحية . ويؤلّد ذلك القبور والنقوش . بيد أنه لم يعثر فيها على قبر القديس سيبريان مع أنها تبدو مطابقة للكنيسة التي ورد وصفها في «اعترافات» القديس أغسطينوس والتي بُنيت على قبر الشهيد الاسقف الشهير «سيبريان» .

وفي «بيرفتوحة» قرب «المرسى» ، اكتشفت مجموعة كبيرة من الآثار المسيحية نذكر منها مدفناً ومصلّى وبيت عماد وكنيسة لم ترفع

عنها الانقاض بصورة كاملة ومجموعة من الفسيفساءات التي تمثّل على ثمانية ألواح سرّ القربان.

ويفترض الأب «دولاتر» بأن مجموعة هذه الآثار قد شُيِّدت تكريماً للقديس «سيبريان» في مكان استشهاده.

وأما كنيسة «دويمس» فتتألف من مبنى ضخم يرجع الى الحقبة البيزنطية وتحتوي على خمسة جوانح وهيكل فيه كرسي الأسقف. ويلحق بها مثل كنيسة القديس سيبريان عدد من الغرف وفناء وبيت عماد. ويمتدّ مجموع هذا البناء على مستطيل يبلغ طوله أربعين متراً وعرضه ثلاثين متراً. ولقد بُلِّطت هذه الكنيسة بفسيفساء ثمين وزُيِّنت بأعمدة من الرخام المتنوّع النقش واللون والمستخرج من الأبنية المتهدّمة.

وفي الطرف الآخر من المدينة - كُشف غرب المرافئ في المكان الذي يُقال له «بيركنيسة» عن كنيسة بيزنطية دبَّ فيها الخراب وأحاطت بها قبور يرجّح أنها أقدم منها.

وهناك مصلّي تحت سطح الأرض على المنحدر الجنوبي من تلّة بيرسة متصل بخزّان ماء ومزيّن بلوحة جدارية وبرموز مسيحية. وكان هذا المصلّى على الأرجح مكاناً للحجّ وربّما أصبح بعد ذلك مصلّى. وليس في الأصل سوى سجن استعمل على الأغلب لاعتقال الشهداء.

وفي سنة ١٩٠١ اكتشف عند سفح تلّة «الأوديون» دير يشتمل على رواق يحيط بساحة مبلّطة وعلى كنيسة يزينها فسيفساءان بيزنطيان. ويكمل هذا الدير مجموعة الآثار المسيحية.

ولا يُعتبر هذا السرد للمباني في قرطاجة الرومانية والبيزنطية تاماً إذا لم نذكر المزارع الكثيرة التي انتشرت في أمكنة كثيرة وخاصّة على هضبة الأوديون. وتؤلّف هذه المزارع مع شوارعها وخزاناتها ومحاريرها مجموعة مدنيّة هامة. ولقد زُيّنت بعض هذه المزارع الرومانية بفسيفساءات شهيرة ما زالت اجمل قطعها حالياً في متحف «باردو» قرب تونس. وتدلّنا هذه المنازل التي يرجع معظمها الى القرن الثالث والرابع، على حياة سكان قرطاج الرومانية.

وهناك كثير من التماثيل اليونانية والرومانية والنواويس وما يزيد على ثلاثين ألف نقش. وأما الشواهد الرئيسية على عظمة المدينة فقد جُمعت في متحفين جميلين هما متحف «باردو» ومتحف قرطاج.

والحقيقة أن مصير هذه المدينة قد ارتبط بشكل عجيب بمصير رومة التي بقيت تنافس القرطاجيين خلال الحروب الفونية الطويلة. وأصبح هؤلاء يدفعون لها الجزية. وفي سنة ١٤٦ قبل المسيح صارت قرطاج ضحيَّة الرومان. ومع ذلك لم يمضِ عشرون سنة حتى بُعثت فيها الحياة وأعاد إليها أعظم القياصرة غناها. وسرعان ما تحوّلت بفضل قوتها الجديدة الى منافسة لرومة في المجال الاقتصادي أولاً ثمّ

في المجال الديني كما غدت مفتاحاً لأفريقية ، مصدر القمح وحاكت مبانيها من حيث كبرها مباني الرومان وذاعت شهرة أبنائها وجلس بعض منهم على عرش الإمبراطورية الرومانية ولاقت المسيحية في قرطاج استقبالاً لا يُضاهى وعُرف فيها عدد كبير من الشهداء واشتهر أساقفتها الذين لم يخضعوا بسهولة لبابوات رومة ونبغ منها لاهوتيون ومدافعون عن الدين احترمتهم المسيحية جمعاء. وهكذا تأسّست قرطاج قبل رومة بقليل وسقطت بعدها بقليل. فهل إن الواحدة لم تتمكّن من العيش دون الأخرى؟

الخاتمة

إن الاكتشافات الأخيرة تجعلنا ندرك أهميّة دور الفينيقيين والفونيين في حوض المتوسّط ، ولكنها لا توضح هذا الدور بصورة كاملة . من هنا ، قد نشوّه وجه تاريخ تطور الانسانية الكلاسيكية ، إذا قصرنا دور هؤلاء على التجارة .

ولا شك أن أشهر ملاّحي العالم القديم هم رجال أذكياء ، لكن معاصريهم قد أساءوا الحكم عليهم ، لأنهم لم يفهموهم . فلقد أوصل الفونيين حسّهم العملي ، وحبّهم للتقدّم ، ومعرفتهم للعالم ، الى درجة من التطوّر الفكري ، والى أساليب اجتماعية وسياسية تثير الاعجاب ، لأنها أكثر تقدّماً من أساليب معاصريهم ، ولأنها تبدو عصرية .

وأما الذوق الجمالي عند القرطاجيين ، فقد بقي فقيراً ، إذ اكتفوا بجمع عناصر الزخرفة التي أخذوها عن الفن المصري حتى القرن السادس قبل المسيح ، كما نقلوا بعد ذلك عن الفن اليوناني . واستعملوا هذه الأنماط المقتبسة حسب ذوقهم ، ليزيّنوا المباني التي لم تصل إلينا إلا بشكل مجزأ .

ونعلم أن أعمال أشهر النحّاتين اليونان، قد زيّنت المباني العامّة، وبلاطات قرطاج، مما يدلّ على ان القرطاجيين كانوا يقدّرون هذه الأعمال، رغم أنهم لم ينتجوا آثاراً فنّية. وهناك قليل من الفنّانين الذين ولدوا من أصل فوني، إلاّ أن الحرفيين الذين يتصفون بالحسّ العملي، وبالمهارة التقنية، انتشروا بأعداد لا تحصى. وبلغتنا شهرة الصبّاغين والمطرّزين والصائغين والنجارين في قرطاج، وأثارت دهشتنا جودة بعض منتوجاتهم التي عثرنا عليها.

وجمع الفونيون الى جانب هذا الذوق الحرفي حبّ البحث العلمي، فلقد ضبطوا صناعة إسمنت صلب، وأتقنوا صنع أسلحة الحصار لكي يدافعوا عن حرياتهم، واخترعوا كذلك تبليط الشوارع. وهدفت رحلتا حنّون وحملكون البحريتان في الأصل الى غايات اقتصادية، لكنها أفادا العلم والحضارة، وأبرزا جرأة روّادهما وحبّ الاستطلاع لديهم.

ويجب ألاّ يُنسينا الجانب العملي في الذكاء الفوني صفات أخرى وجوانب أخرى اتصف بها خلقهم، نخصّ منها بالذكر الخيال الشعري. فنحن نستشفّ من خلال القصائد الدينية، والأساطير التي تدور حول جدود الفونيين، والتي كتبت على ألواح رأس شمرا، غنى الأدب الفينيقي في الالف الثاني ولقد دلت اعمال «بيرار» على الاصل الفينيقي لأساطير يونانية كثيرة، منها الأوديسّة. ونلمح من

خلال تلخيص رحلة حنّون القصص الخرافية المحوكة حول البحّارة القرطاجيين. ولكن لم يبلغنا من الأدب الفوني غير أسماء «ماغون» و«شارون» و«كليتوماك» بينما بقيت آثارهم مجهولة لدينا. ولا نعرف شيئاً عن المخطوطات الفونية التي حرص سيبيون على بعثرتها في أنحاء أفريقية.

وكانت مفاهيم الفونيين الاقتصادية والاستعمارية متقدّمة على المفاهيم التي سادت في زمنهم بآلاف السنين. فلقد ركزوا المؤسّسات القائمة على القوّة، واهتموا بكسب زبائن مخلصين، ووفّروا لهم الازدهار، ورفعوا مستوى معيشتهم، ومنحوهم وسائل الإثراء، ولقّنوا سكان البلاد الأصليين استخدام الزراعات الكثيفة كزراعة العنب والزيتون، وعلّموهم تنمية الحرف التي ما زالت حتى أيامنا مصدر ثروة تونس.

وهذا ما دفع بالحقيقة بالفلاسفة اليونان الى القول بأن أشهر نظامين في العالم القديم، هما نظام قرطاج ونظام «لاسيديمونة».

وبالرغم من رغبة القرطاجيين الصريحة في السلام، فلقد أظهروا في الحروب، عندما أُجبروا على خوضها، أرفع الفضائل العسكرية على مثال قوادهم «مالكوس» وهملقار وهنيبعل.

وأبدى الفونيون عاطفة دينية عميقة. وتدلّ ذبيحة الأبكار لديهم على إيمانهم واعتقادهم بالحياة الأخرى.

وعرفت الكنيسة المسيحية الأفريقية في قرطاج ، وفي المستوطنات الفونية القديمة ، انتشاراً سريعاً ونشاطاً يرجع في الحقيقة الى الخميرة الطيّبة التي تركها الدين الفوني .

واتصل الفينيقيون بـالحضارات الشرقيـة العظيمـة بفضل موقعهم الجغرافي عند ملتقى الطرق الاقتصادية والعسكرية في الشرق . وعندما حلّوا في أفريقية ، والعالم الغربي في سبات ، أنشأوا مدينة تفتّح فيها ذكاؤهم وخبرتهم ، دون أن يوحوا بالشكّ والقلق للامبراطوريات الشرقية والمصرية . فحقّقوا بذلك بغير متاعب ولا حروب نجاحاً اقتصادياً وسياسياً باهراً .

ولم يقف في وجه هذا الاتحاد القرطاجي إلا أطماع رومة الاستعمارية المتزايدة ، وجهل الشعوب البربرية . وما زالت مؤسسات قرطاج ، السياسية ومفاهيمها الاقتصادية ، ورغبتها في السلام ، تثير فينا الاعجاب ، وتبدو قريبة من مؤسّساتنا ومفاهيمنا ورغباتنا ، رغم أنها تسبق عصرنا بألفي سنة .

فهرس



Madeleine HOURS

Conservateur des Musées Nationaux
Chef du Laboratoire de Recherche des Musées de France

CARTHAGE

Traduction Arabe
de
Ibrahim EL-BALECH

EDITIONS OUIEIDAT
Beyrouth - Paris



لقرطاج، في التاريخ، اسم متوهج.

ولأصحابها الفينيقيين، اسم ذو ألق لا كما في المألوف.

هذا الكتاب، ومؤلفته هي المحافظة الأولى للمتاحف الوطنية في فرنسا، يحاول ان يوجز المسألة القرطاجية اليوم، ملتفتاً لا الى المعطيات التاريخية وحدها، بل الى خلاصة أعمال المنقبين التي حملت إلينا نصوصاً ونماذج من أرض قرطاج نفسها، خلال حملات تنقيبية متتالية.

واذا اسم قرطاجة (أو قرطاج كما باتت معروفة اليوم)، يعني «المدينة الجديدة»، فلا أقل من ان تكون هذه المدينة الخالدة، نضرة التاريخ، لا تشيخ مع الدهر، لأن المكتشفات الحديثة ما زالت تقطف آثاراً جديدة، تروي ما كان لهذه الحاضرة من مجد، وما كان ا[illegible] «إليسا» التي من صور، بطولة ونبل وشهامة.

انها صفحة من التاريخ، شاعخة، تعلمنا أن نحب تاري[illegible] الذين كتب اسلافهم دائماً صفحة أولى في كتب التاريـ[illegible]

والمؤلفة، التي هي في الوقت نفسه باحثة علمية في المر[illegible] للبحوث العلمية في فرنسا، زوّدت هذه الطبعة العربية بمقد[illegible] بناء على طلب خاص من منشورات عويدات.

الثمن ٨ ل. ل.

EDITIONS OUEIDAT
Beyrouth – Paris